
حرب العصابات
دار المكشوف - دار العلم للملايين

الطبعة الاولى ، بيروت ـ لبنان ، كانون الاول ١٩٥٦

حرب العصابات

من كارل ماركس الى ماو تسي تونغ

تعريب

اويس الحاج

دار المكشوف – دار العلم للملايين

الاهداء

الى كل عربي يريد ان
يكون جندياً يحمي وطنه من
كل اعتداء ...

الناشر

مقدّمة

ليست « الحرب الصغيرة » أو حرب العصابات من مبتكرات هذا العصر ، فقد مارستها الشعوب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دفاعاً عن استقلالها وحريتها في وجه الفاتحين ، وعرفنا نحن في دنيانا العربية شكلاً من اشكال الحرب الصغيرة عندما قاد المغامر الانكليزي الكولونيل لورانس في الصحراء تشكيلات من البدو قصرت نشاطها على ارهاق الجيش التركي بتهديد مواصلاته ومؤخراته ، والاغارة على جناحيه .

وحاولنا عام ١٩٤٨ ، في ابان الحرب الفلسطينية ، دعم الحرب النظامية بحرب صغيرة يشنها المجاهدون ، ولكن نشاط هؤلاء لم يقم على اسس واضحة ، ولم ترسم له خطط مدروسة ، فما اوتي ثماره المرجوة مع الاسف .

واليوم ، وقد همت مصر المجاهدة في سبيل كرامتها

وكرامة العرب جميعاً بالرد على الاعتداء باجدى وسيلة يمكن ان يقابل بها شعب باسل فاتحاً متفوقاً ، رأينا ان نقدم للعرب دراسة موضوعية عن « الحرب الصغيرة » أو حرب العصابات ، وضعها القائد الانكليزي اوبري ديكسون بالاشتراك مع الطبيب الالماني اوتو هيلبرون ، وضمناهـا ابرز وقائع حرب العصابات في الصين وروسيا ، ناهيك بشرح واف للقواعد التي ترتكز عليها هذه الحرب ، ولاستراتيجيتها وتكتيتها ، آملين ان تجد امتنا ذات الماضي المجيد والامكانيات الزاخرة في مسلك الامم النابضة بالحياة قدوة لهـا وحافزاً .

الفصل الأوّل

هذه الحرب كانت تنتظرني

من عيوب المسيطرين (الحكام الدكتاتوريين) في عصرنا انهم ينشرون مناهجهم على الملأ . فقراء «كفاحي» الذي وضعه مؤلفه عام ١٩٢٣ اخذوا علماً بما ينتظرهم . ومنذ ١٩٢٧ اعلن اليابانيون عن عزمهم على احتلال الشرق الاقصى كله . ولكن الالمان واليابانيين هولوا اكثر من اللازم ، فما صدقهم احد. وقد تعلم الناس ، على حسابهم ، ان يصدقوا كل ما يتبجح به المسيطرون .

ولم يكن هتلر والمسيطرون اليابانيون السابقين إلى الاعلان عن نياتهم التوسعية أو خططهم واساليبهم ، فقد سبقهم إلى ذلك الذين رسموا مبادىء حرب العصابات امثال كارل ماركس ولينين وماو تسي تونغ وستالين .

« ان امة تكافح من اجل حريتها تستطيع ان تلقي وراء ظهرها بما وضع للحرب من قوانين وقيود . ويمكن الأمة الصغيرة ان تواجه عدداً اقوى منها بعصابات الانصار والمخربين [1] . »

كتب كارل ماركس هذه الاسطر منذ مئة سنة ويزيد ، ولكن اقواله تحتفظ إلى يومنا هذا بقيمتها كاملة . ولا ننسى ان ماركس لم يكن رجل حرب ، إنما كان مفكراً كبيراً واشهر مؤلفاته « الراسمال » . ولكن ليس معنى ذلك ان الحرب كانت مجهولة بالنسبة اليه ، فقد انتدبته جريدة « نيويورك تريبيون » عام ١٨٥٣ لموافاتها برسائل عن حرب القرم [2] . وبعد عشر سنين كتب لحساب الصحف النمسوية ريبورتاجات (عاونه فيها انجلز) عن الحرب الاهلية الاميركية [3] .

والمقطع الذي أوردناه اعلاه مأخوذ من تقرير وضعه كارل ماركس عن موقعة نوفار (١٨٤٩) . وهو اذ يطلع بتلك النظرية الثورية عن الحرب لا يمكنه الزعم انه مبتكر حرب العصابات ، فقد عرف الصينيون هذه الحرب عام ٣٦٠ قبل الميلاد

١ كارل ماركس : New Rheinische Zeitung, No. 161, Ier Avril 1849

٢ كارل ماركس : The Eastern Question

٣ كارل ماركس وفريدريك انجلز في كتابهما « الحــــرب الاهلية في الولايات المتحدة الاميركية » ، وقد نشر في لندن سنة ١٩٣٧ .

اذ لجأ اليها الامبراطور هوانغ في كفاحه ضد تسي يـاو ، وبالانصار تغلب هوانغ على اعدائه [1] .

وعرفت اوروبا الحرب الصغيرة في القرن الثامن عشر عندما واجهت قوات الثورة الفرنسية عصابات اعداء الثورة، كما عرفتها اميركا في ابان ثورتها . وعام ۱۸۰۸ جمدت العصابات الاسبانية جيوش نابوليون . وقيل ان عصابات روسية هاجمت مؤخرات الجيش الاعظم في اثناء تراجعه عام ۱۸۱۲ .

ولكن كارل ماركس كان اول من ادرك اهمية حـرب العصابات وما يمكن ان يترتب عليها . وعندما طلع ماركس بارائه في « حرب الشعوب » كانت ترتيبات القتال تشتمل على خطوط مشاة في ثلاثة صفوف : الصف الأول منبطح ، والثاني راكع ، والثالث واقف . وبهذا الوضع كان المشاة يتلقون هجوم الخيالة بالسيف والحربة . وكانت الحرب حرب خنادق وحـرب حركات ، وكانت هـذه منوطـة بالخيالة ، ولم يكن العالم قـد عرف بعد الشاحنة والجيب والدبابة والمدفع الآلي ، والغواصة والطائرة والصاروخ والقنابل الطائرة والرشاش والقنابل الحارقة والحرب الكيمائية والجرثومية ، والرادار والقنبلة الذرية. وعندما طبقت اوروبا افكار كارل ماركس على نطاق واسع كانـت

China at War de Chungking, Vol. II, No. 4, Avril 1939, P. 8. ١

الاسلحة الجديدة قد ادت امتحانها أو همت بتأديته . وعلى الجبهة الشرقية كابد الالمان على ايدي الانصار ضعفي ما كابدوا من خسائر على يدي الجيش الاحمر ، وحتى رجل كالدكتور غوبلز الفى نفسه عاجزاً عن مواجهة سلاح لم يدخله هتلر في حسابه ، أو كما قال كاتب فرنسي : لم يستطع غوبلز الحي التغلب على افكار كارل ماركس الميت .

كان غوبلز يتبع باهتمام زائد اخبار الانصار الروس ، بدليل ما دونه في يومياته عنهم . انه يقول [١] :

« ٦ آذار ١٩٤٢ . — يقول تقرير مصلحة السلامة في الجيش ان الموقف على الجبهة الشرقية غير واضح وغير مستقر ، وان نشاط الانصار الروس يتزايد يوماً عن يوم ، حتى انهم توصلوا إلى اخضاع مساحات شاسعة لاشرافهم المباشر واخضعوها لنظام ارهابي . »

« ١٦ آذار ١٩٤٢ . — اشتدت وطأة الانصار الروس خلال الاسابيع الاخيرة . ويبدو جلياً انهم يشنون حرب عصابات محكمة التنظيم ، كما يبدو انه ليس من السهل القضاء على نشاط الانصار لأنهم يرغمون السكان على التعاون معهم ويجعلون ، باساليبهم الفظة ، تعاون السكان مع

١ The Gæbbels Diaries نقلها الى الانكليزية ونشرها لويس ب . لوشنر بلندن عام ١٩٤٨ .

قواتنا امراً مستحيلاً . »

« ٢٩ نيسان ١٩٤٢ . — عانينا الكثير من نشاط الانصار في الشتاء . وقد ازداد نشاطهم في الربيع . في الجبهة الوسطى نسف الانصار الخط الحديدي في خمس نقاط بين بريانسك وروسلاول . ولا جدال في ان ما تقوم به العصابات الروسية قد قلب خطط القيادة الالمانية رأساً على عقب . »

قلنا ان غوبلز اخذ معلوماته عن حرب الانصار من تقارير مصلحة السلامة العسكرية ، وكانت نسخ من هذه التقارير توزع على زعماء الحزب الهتلري .

وقد فقدت التقارير وعثر الحلفاء على مجموعة منها في منجم للملح مهجور قرب سالزبورغ (النمسا) ، ويتضح من تصفح هذه التقارير ان غوبلز قصر في ايفاء حرب العصابات الروسية حقها من التقدير . وهو إذ يحاول عبثاً ايجاد الوسائل الكفيلة بالحد من نشاط الأنصار ، ينصب على تحري اسباب هذا النشاط ، فقد كتب في يومياته بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٤٢ :

« كان الاوكرانيون بادىء ذي بدء مستعدين للاعتراف بالفوهرر زعيماً لاوروبا ومنقذاً لها ، وقد استقبلوا بفرح الجيش الالماني . ولكن موقفهم تبدل بعد اشهر ، لأن اساليبنا اغضبت الروس عموماً والاوكرانيين على

الاخص . »

وعاد غوبلز إلى طرق الموضوع نفسه في ٢٢ ايار ١٩٤٢ :
« انا شخصياً مقتنع بوجوب تغيير اساليبنا في معاملة شعوب الشرق ، لاننا بتغيير هذه الاساليب نتوصل إلى الحد من نشاط الانصار ، وذلك من طريق كسب ثقة تلك الشعوب . وعندي ان اتباع سياسة حكيمة حيال الفلاحين والكنيسة من شأنه اجتراح العجائب . وارى ان تقام حكومات محلية نحملها مسؤولية ما يقع من حوادث مزعجة لنا . »

ولكن غوبلز لم يكن صادقاً في دعوته إلى معاملة الاهلين بالحسنى ، فقد اشتهر عنه انه من دعاة اليد الحديدية المغطاة بقفاز مخملي ، بدليل ما كتبه في ٤ كانون الأول ١٩٤٣ : « تلقيت اليوم تقريراً عن الموقف الحربي في الشرق ... ولا بد من الاعتراف باننا ارتكبنا خطأ كبيراً بتركنا الذكور من السكان المدنيين في المناطق التي اضطررنا للجلاء عنها ، لان السوفيات سارعوا إلى تجنيدهم ، وهكذا كسب ستالين دون كبير عناء نصف مليون رجل يعمل معظمهم في التشكيلات غير النظامية . »

ويبدو جلياً من تخبط غوبلز في نظرته إلى حرب

العصابات وكيفية مواجهتها انـه . وهو الدكتور في الفاسفة والشغوف بالمطالعة ، لم يتعمـق في درس كارل ماركس ، ولم يقرأ ما كتبه بشأن الحرب الصغيرة ماو تسي تونـغ ولينين وستالين .

وجدير بالذكر ان الالمان واجهوا حرباً كهذه عـام ١٨٧٠ – ١٨٧١ على الاراضي الفرنسية ، ولكن مؤرخيهم لم يقدروا تلك الحرب قدرها ، واشاروا اليها اشارة عابرة ، ووصفوها بانها حرب غير مشروعة . غير ان لينين نظر اليها نظرة اخرى وكتب يقول :

« اعطت حرب العصابات كما اعطت الاضرابـات وحوادث الشعب نتائج باهرة في ثورة ١٩٠٥ [١] . »

وذكر ستالين ان هذه الاساليب نفسها استعملت بنجاح في ثورة ١٩١٧ . ولئن يكن لينين قد اعتبر حـرب العصابات مجدية فان ستالين قد قرر انها حاسمة ، ولم يتردد في القول انـه لولا الانصار لمـا استطـاع الشيوعيـون قلب كرنسكي . ففـي تقرير تلاه ستالين في ٢٣ نيسـان ١٩٢٣ أمـام المؤتمر الثاني عشر للحزب الشيوعي الروسي ، قـال :

« لا تنسوا ايها الرفاق اننا صفينا بسرعة كرنسـكي

١ F.O. Miksche, p. 26 et 27.

وقلبنا الحكومة الموقتة لاننا من جهة كنا نتمتع بتأييد السكان المستعبدين الذين كانوا ينتظرون الخلاص والفرج على ايدينا، ومن جهة اخرى كان المواطنون الناقمون على الحكومة الموقتة والقادة الموالين لها يهاجمون مؤخرات اعدائنا ويكبدونها خسائر فادحة . وبفضل عصابات الرماة الاحرار هؤلاء استطعنا نحن ان ننظم صفوفنا وننفذ خططنا ونحطم اعداءنا [1] . »

لم ينس ستالين هذه الحقيقة كما لم ينسها الذين سمعوا تقريره يومذاك . واثيرت المسألة مجدداً عام ١٩٢٧ في المؤتمر الشيوعي العام (مؤتمر الاحزاب الشيوعية في العالم) واقر المؤتمرون المبدأ الآتي : « تحويل الحرب التي تعلنها الدول الراسمالية إلى حرب اهلية تعلنها البروليتاريا على البورجوازية ، ثم العمل على فرض دكتاتورية البروليتاريا باثارة الجماهير في المؤخرة ومؤاخاة الجنود في ميادين القتال ... ومتى ثارت الجماهير يصار إلى تأليف عصابات مسلحة تعمل على تفكيك نظام الحكم [2] . »

١ راجع كتاب « ستالين في الحزب الشيوعي » الذي صدر عام ١٩٤٥ وترجم الى عدة لغات .

٢ T. A. Taracouzio, The Soviet Union and International Law, New-York, 1935, p.139 et 141 .

وهكذا فتح السوفيات آفاقاً جديدة لحرب العصابات . فبالاضافة إلى النشاط الذي يمكن ان يقوم به الانصار الروس على الارض الروسية في حال حصول غزو ما ، يمكن شيوعو البلدان الراسمالية ان يؤلفوا العصابات فيقضوا على جيوش اوطانهم اكراماً للاتحاد السوفياتي .

وعاد ستالين إلى الموضوع نفسه عام ١٩٣٤ ، فقال مخاطباً العالم بأسره : « ستكون الحرب المقبلة اشد خطراً على البورجوازية من الحروب السابقة ، لأن القتال سيشمل حتماً مؤخرة العدو . ولتثق البورجوازية بأن اصدقاء البروليتاريا الروسية في اوروبا وآسيا لن يقفوا مكتوفي الأيدي ، انهم سيتدخلون ضد مؤخرات الذين يضطهدونهم [١] . »

واصدقاء البروليتاريا الروسية معروفون باسم آخر هو « انصار السلم » . ألم يقل السنيور تيراشيني عضو مجلس الشيوخ الايطالي والشيوعي الاشهر في تصريح ادلى به عام ١٩٥١ : « إذا نشبت الحرب فانصار السلم سيؤدون واجبهم ، مع العلم انهم يصيرون انصاراً للحرب عندما

١ من تقرير ستالين الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، وقد تلي في المؤتمر السابع للحزب .

يتطلب الامر الدفاع عن الحرية [1] » ؟

ان نصير السلم الحقيقي هو « تعاوني » . ففي الحرب الاهلية الاسبانية رأينا « الطابور الخامس » يحاول نسف اجهزة الدفاع في مدريد ليسهل مهمة الجنرال فرانكو الزاحف إلى العاصمة . ولكن « التعاونيين » اولئك كانوا يسهمون في نزاع بين اسبانيين ... وقد عرفنا في الحرب العالمية الثانية تعاونيين ، من طراز كويسلنغ ، يخونون اوطانهم ، ويفتحون ابوابها للعدو ، ويضطهدون مواطنيهم ... ولكننا لم نسمع ان « كويسلنغ » واحداً اقدم على مقاتلة جنود وطنه . اما « انصار السلم » فيبدو انهم على اتم استعداد للانقضاض على مؤخرات جيوش بلدانهم ، ولافتعال الاضطرابات الداخلية ، وتأليف عصابات مهمتها تسهيل مهمة القوات الشيوعية الاجنبية التي تقاتل القوات الوطنية .

وحتى العام ١٩٣٤ لم يكن الانصار قد اثبتوا وجودهم بشكل مسرحي ، وحتى مغامرات الكولونيل لورانس في البلاد العربية لم يعدها احد من العمليات البارزة [2] .

١ نشرت التصريح جريدة الاوبزرفر البريطانية بتاريخ اول نيسان ١٩٥١ .

٢ بشهادة ف . و. ميكشي والنقيب ليدل هارت اللذين اكدا ان الالمان في الحرب العالمية الاولى لم يصادفوا انصاراً الا في لتوانيا .

والمسرح الوحيد الذي نشط عليه الانصار قبل ظهورهم في روسيا عام ١٩٤٢ هو الصين حيث فاجأ ماو تسي تونغ العالم الغربي بعمليات منظمة تولاها الانصار ، وبمعارك حاسمة خاض غمارها الانصار .

وماو تسي تونغ يعتبر فيلسوف « الحرب الصغيرة » . اذ اضاف إلى الافكار المكتوبة والمبادىء المقررة افكاراً ومبادئ جديدة .

وماو تسي تونغ هو بحق اول استراتيجي في حرب العصابات . وكان الجيش الاحمر الصيني ، قبل اعتماده هذا الشكل من اشكال الحرب ، قد خسر اكثر من معركة ، فما ان لجأ إلى اساليب « الرماة الاحرار » حتى شعر المارشال شان كاي شيك بأن الامر افلت من يده .

ويمكن القول ان الصينيين « جعلوا من حرب العصابات ، المعدودة في الغرب فرعاً بسيطاً من التكتية العسكرية ، واقعاً استراتيجياً قائماً على مقاومة الجماهير مقاومة طويلة النفس[1] . » وقد وجد ماو تسي تونغ في مؤلفات كارل ماركس الفكرة التي بنى عليها استراتيجيته وتكتيته . يقول القائد الصيني الكبير : « لا جدال في ان العدو يفوقنا عدداً واستعداداً

١ Edgar Snow, Scorched Earth, (Londres, 1941, p. 323)

تقنياً ، وفي ان المقاطعات الخاضعة لسلطتنا ضيقة وفقيرة . من هنا كان وجوب اعتمادنا حرب العصابات ليتسنى للجيش الصيني الاحمر احباط خطط العدو واحراز النصر [1] . »

وحرب العصابات في نظر ماو تسي تونغ ما هي الا المرونة في القتال . وقد جعل الحرب ضد اليابان على مراحل ثلاث : في المرحلة الاولى يتقدم اليابانيون ويتقهقر الصينيون [2] . ويقتصر الدفاع على مناورات هجومية خاطفة يتفرق بعدها الصينيون ويختفون ، فليس مطلوباً من الجيش الصيني مواجهة العدو في حرب خنادق [3] . إنما المطلوب القيام بحرب حركات على رقعة من الارض مترامية الاطراف . وحرب الحركات هذه يجب ان يقوم بها الانصار ورجال العصابات . « وبهذه الطريقة يتجنب الصينيون الدخول مع اليابانيين في

١ استراتيجية الحرب الثورية في الصين (نشر في الصين عام ١٩٣٧ وترجم الى الفرنسية عام ١٩٥٠ ونشر في باريس) .

٢ راجع : Haldore Hanson في كتابه « الجهود الانساني » Humane Endeavour المنشور في نيويورك وتورنتو عام ١٩٣٩ .

٣ من تصريح ادلى به ماو تسي تونغ لادغار سناو في ١٦ تموز ١٩٣٦ ، وفيه تحدث الزعيم الصيني الاحمر عن نضال الصين لصد الغزو الياباني .

معارك كبيرة ، لأن غايتنا في المرحلة الاولى هي سحق معنويات عدونا شيئاً فشيئاً والابقاء على معنويات رجالنا سليمة . »

المهم في المرحلة الاولى ان تبقى المعنويات الصينية سليمة . « في حربنا تكون الامة المسلحة والحرب الصغيرة من جهة والجيش الاحمر من جهة اخرى اشبه بذراعي رجل . وهذا اخشى ما يخشاه العدو [1] . »

وهكذا يبدو جلياً ان اهم ما ينبغي ان يعمل له الصينيون في المرحلة الاولى هو القضاء على معنويات العدو [2] . وبعد هذا تبدأ المرحلة الثانية . مرحلة ارهاق قوى اليابانيين . « يجب اتعاب اليابانيين بارغامهم على القتال طوال الـ ٢٤ ساعة من كل يوم حتى تتلاشى قواهم ، وهذا مطلوب من تشكيلات الانصار [3] » . « من اجل ذلك يجب علينا ان نؤلف عصابات من الفلاحين ، فنسلحها وندربها ونثورها سياسياً وعسكرياً وننشيء لها ملاكات خاصة . ولا ننسى ان الحرب ساحتها الصين . وهذا يعني

١ ماو تسي تونغ في كتابه « استراتيجية الحرب الثورية في الصين » ، ص١٠١ .
٢ من تقرير قدمه ماو تسي تونغ الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بتاريخ ٢٥ كانون الاول ١٩٤٧ .
٣ في تصريح ماو تسي تونغ لادغار سنلو .

ان اليابانيين يجب ان يعيشوا في وسط معاد لهم ، مما يضطرهم إلى استحضار المؤن من الخارج وإلى تجميد قوات كبيرة لحماية المواصلات والسكك الحديدية ومستودعات المؤن والذخيرة ، وعندها يمكننا استدراج العدو إلى المعركة الكبرى في الوقت والمكان المناسبين لنا . »

وبانتهاء المرحلة الثانية نهايةً حسنة تستأنف حرب الحركات ، ولكن الصينيين يكونون هذه المرة مهاجمين بينما يكون اليابانيون في حالة التلاشي . أما الانصار فيتولون مهاجمة المؤخرات وقطع المدد والمؤن عن العدو المتقهقر .

ويعتبر كتاب ماو تسي تونغ « الحرب الصغيرة » ابرز عمل قام به في حرب الانصار الصينية . وقد نشر عام ١٩٣٧ . وجدير بالذكر ان كتاب « الحرب الصغيرة » لم ينشر في اوروبا ، ولم تدخل انكلترا نسخة واحدة منه باللغة الصينية . وقد ترجمه إلى الانكليزية الضابط البحري الاميركي ب . غريفث [1] .

يقول الزعيم الصيني في كتابه ان حرب الانصار يجب

[1] نشر غريفث الترجمة في مجلة الاسطول الاميركي عام ١٩٤٠ . وفي العام ١٩٤٨ نشرت في بومباي ترجمة انكليزية اخرى للكتاب .

ان تسهم في احراز النصر . « يجب وضع رجل عسكري على رأس كل منطقة يعاونه مفوض سياسي . وتقسم المنطقة الى اقضية على رأس كل منها رجل عسكري وعدد من المفوضين السياسيين مهمتهم تنظيم مراكز القيادة العسكرية والسياسية ، وهي مراكز تلحق بها فصائل من الانصار . ولكن لما كان الانصار يعملون على العموم باستقلال نسبي فمن الضروري الا يحصر الاشراف على نشاطهم بسلطة عليا ، والافضل ان يكون الاشراف محلياً ومنوطاً برؤساء اقليميين ، على ان تبقى الادارة الاستراتيجية منوطة بالسلطة العليا . »

وقد تبنى الانصار السوفيات هذا التنظيم كما سيظهر معنا في سياق البحث .

ويرى ماو تسي تونغ ان يوقع الانصار خطاهم على خطى القوات النظامية . « فالحرب الصغيرة هي ولا ريب سلاح ماض ، ولكن ليس لها ان تدعي القدرة على سحق العدو وحدها . يقابل هذا انه لا يمكننا سحق العدو بدون مساعدة الانصار . فالجيش يقوم بالدور الرئيس ، والانصار يساعدونه على احراز النصر . من هنا كان وجوب قيام تعاون وثيق جداً بين الجيش النظامي وتشكيلات الانصار . »

ولتحقيق هذا التعاون يتلقى الانصار التعليمات والأوامر من قيادتهم ومن قيادة الجيش . وحدد ماو تسي تونغ مهمة الانصار عندما يعملون متعاونين مع الجيش ، فقال ان مهمتهم هي نقل الحرب إلى مؤخرات العدو وتطويل ميدان المعركة . وعليهم القضاء على الوحدات الصغيرة وارهاق الوحدات الكبيرة واضعاف معنويات العدو بمهاجمة خطوط تموينه ، وبذلك يضطرون الخصم إلى بعثرة قواه وتوزيعها على نقاط عدة فلا يلبث ان تنهار قواه .

وقد شبه ماو تسي تونغ الانصار بالبعوض « تهاجم اسرابه الكثيفة عملاقاً فترديه بلذعاتها . »

وقد طبق ستالين تكتية ماو تسي تونغ واطلق على الحرب الصغيرة اسم « الجبهة الثانية » .

أما استراتيجية الانصار فانها تختلف عن استراتيجية القوات النظامية . وقد ادرك ماو تسي تونغ هذه الحقيقة ، فمنع الانصار من الدخول في معارك حاسمة ، ومن الاسهام في حرب خنادق وتحصينات . فنشاطهم يقوم على المباغتة والحركة . وقد شدد على هذه النقطة في مؤلفه « الحرب الصغيرة » كما شدد عليها تكراراً في اوامره اليومية في الكراريس التي كانت توزع على آمري الوحدات مرة كل ١٥ يوماً .

ويمكن ايجاز النصائح التي ضمنها ماو تسي تونغ نشرته الدورية بما يأتي :

١ – ينبغي للانصار ان يتفادوا الاشتباك بقوات متفوقة. اما إذا الجئوا إلى مواجهة العدو المتفوق فعليهم ان ينسحبوا إذا تقدم ، وان ينهكوه إذا توقف ، وان يهاجموه متى ادركه العياء ، وان يطاردوه متى تقهقر .

٢ – المباغتة هي شرط عمليات الانصار .

٣ – يجب اعداد العمليات اعداداً كافياً . وعلى الانصار ان يتصرفوا من عندهم .

٤ – ينبغي توجيه الضربة الاشد إلى الوحدات المعادية الاكثر ضعفاً . وقد وضع هذه القاعدة بنغ تي هو ، قال : « في اشتباك عادي مع قوات العدو يجب ان يكون الانصار متفوقين بالعدد . اما عندما تكون قوات العدو في حالة تحرك او في حالة توقف ، أو عندما تكون مفتقرة إلى حراسة كافية ، فيمكن وحدة من الانصار اقل عدداً من تلك القوات ان تنقض عليها جانبياً بقوة وسرعة وعلى حين غرة مستهدفة نقطة حيوية أو خطاً رئيساً من خطوط المواصلات . »

٥ – شن هجمات او غارات خاطفة وعنيفة تكون ذات نتائج صاعقة مذهلة .

٦ — إذا كانت ظروف القتال غير ملائمة للانصار فعليهم ان ينتقلوا فوراً إلى مكان آخر ويتفرقوا . وهذه القاعدة تطبق على وحدات الانصار ذات القوة المحدودة ، والانصار المحصورين والذين يجدون انفسهم على ارض مكشوفة ، واخيراً الذين يكون تموينهم غير كاف .

٧ — ينبغي للانصار ان يتجمعوا متى شاهدوا العدو يتقدم نحوهم ووجدوا ان ثمة مجالاً لمواجهته والقضاء عليه .

٨ — على قادة الوحدات العمل على تضليل العدو ، كأن يوهموه بما يصطنعون من حشود وحركات ان الهجوم سيبدأ من الشرق والشمال بينما يكون الهجوم الحقيقي قد انطلق أو اوشك ان ينطلق من الغرب والجنوب .

٩ — احاطة الخطط وتفاصيلها بالكتمان ليظل لعنصر المباغتة قيمته كاملة .

١٠ — ان تعاون الانصار والسكان المدنيين ضروري بل جوهري . يقول بنغ تي هو : « يحسن بالانصار ان يضمنوا ولاء السكان المحليين الذين يشكلون شبكة استخبارات ثمينة . وعندي ان كل المواطنين العزل يمكن استخدامهم في مراقبة العدو وموافاة القيادة باخباره ، بحيث لا تفوتها حركة من حركاته . »

وسنرى في سياق هذا البحث ان تكتية الانصار

الروس قد استوحيت من تعاليم ماو تسي تونغ الذي ادرك ان الحرب الصغيرة لن تقتصر على الصين : « ان حرب الانصار التي نشنها في بلادنا لا نجد لها مثيلاً في التاريخ . ولست اشك في ان بلداناً اخرى ستلجأ اليها متى لمست نجاحها عندنا . »

وجدير بالذكر ان ماو تسي تونغ لم يحد قط عن المبادئ والقواعد التي وضعها . وغني عن القول ان تنفيذ تصاميمه اسفر عن هزيمة المارشال تشان كاي شك وقيام الدولة الشيوعية على انقاض الصين الوطنية . اما ما قام به الانصار الصينيون لبلوغ تلك النتيجة فليس هنا مجال التبسط فيه . ويحسن بمن يهمه التوسع في دراسة هذه الناحية ان يعود إلى كتاب « الاستراتيجية الثورية في الصين » .

وانصافاً لادولف هتلر نذكر انه توقع نتائج الحملة اليابانية في الصين عندما صرح في ١٨ شباط ١٩٣٨ معقباً على اعتراف المانيا بحكومة « منشوريا » : « ان الصين اضعف من ان تقاوم الموجة البولشفية المتصاعدة فيها » . بيد ان هتلر لم يتبين الخطر الذي يشكله نجاح الصينيين الحمر بالنسبة إلى حليفته اليابان لأنه اغفل درس الأساليب التي اعتمدها ماو تسي تونغ في كفاحه وفي سعيه إلى تسلم زمام الحكم في بلاده . وماو تسي تونغ هو الذي

قـال : « انـه لخطأ فاحش تجاهل مبادئ الكفاح المسلح والحروب الثورية وحروب الانصار والعمل السياسـي في الجيش [1] . »

في ٢٢ حزيران ١٩٤١ اجتاحت الجيوش الالمانـيـة الاراضي الروسية ، وقد اعتبرت محكمـة نورمبرغ الدولية هذا الاجتياح عملاً اعتدائياً ، اما جهة الدفاع فقد وصفته بانه عمل دفاعي وقائي [2] . والواقع هو ان الاتحاد السوفياتي لم يكن مهيئاً لتلقي الصدمة ، وكان يفضل ان يرى الالمان والانكليز يتذابحون ليستولي هو على نصيبه من الاسلاب عند تصفية تركة الفريق المغلوب على امره . ومن هنا كان استعداد ستالين للتنازل لالمانيا عن كل ما تطلب ما خلا الاراضي التي كان هتلر يرنو اليها كجزء من مداه الحيوي . بيد ان ستالين لم يكتف بالتفرج على المتحاربين ، فبعد اسبوعين من نشوب الحرب اذاع امره الشهير على شعوب روسيـا السوفيـاتية :

« في المناطق التي يحتلها العدو تؤلف وحدات مـــن الانصار وحضائر من المخربين مهمتها شن حرب العصابات .

١ راجع كتاب الثورة الصينية ودور الحزب الشيوعي الصيني الذي صدر في بومباي باللغة الانكليزية .

٢ الوزير السابق كورنر .

ونسف الجسور والطرق وقطع المواصلات الهاتفية والبرقية وحرق الغابات وتدمير المستودعات والعقارات بحيث يستحيل على العدو جني فائدة ما من المنطقة المحتلة ووضع خططه وتصاميمه موضع التنفيذ . »

من الجانب الالماني بدأت استعدادات الهجوم على روسيا السوفياتية في خريف ١٩٤٠ . وفي مستهل ١٩٤١ رسمت الدوائر ذات الاختصاص خطط العمليات وخطط استغلال روسيا اقتصادياً . ولكن رؤساء الاركان العامة ، وحتى هتلر الشغوف بالتفاصيل ، لم يعيروا حرب العصابات وما قد تجز اليه الاهتمام الذي تستحق . ففي المرسوم الذي حدد به هتلر وظائف القضاء العسكري في روسيا المحتلة جاء على ذكر العصابات بالعبارة الآتية : « اما الأنصار فالجيش يتولى ابادتهم دون ما شفقة [1] » . وهكذا توهم المسيطر الالماني ان القضاء على الحرب الصغيرة غاية في السهولة : يكفي ان يصدر الامر إلى الجيش بابادة الأنصار حتى يضع الجيش حداً لنشاط هؤلاء .

لقد استهان هتلر ومعاونوه من مدنيين وعسكريين بالانصار في وقت كانت الاحوال ملائمة جداً لنشوب حرب

١ مأخوذة من المرسوم الهتلري الصادر بتاريخ ١٣ أيار ١٩٤١ .

عصابات تعم اوروبا المحتلة كلها . ومن تلك الاحـــوال ثـلاث اتى على ذكرها ف . و. ميكشي في كتـــابـــه « الحرب الحديثة » :

١ – ترتب على تقدم الاستراتيجية والتكتية ترامي ميدان المعركـة بحيث لا يلقى الانصار صعوبة كبيرة في التسلل اليه .

٢ – تعتمد الجيوش الحديثة إلى حد كبير على القواعـد الصناعية والزراعية القائمة في المؤخرة والتي تربطهـــا بالجيوش المقاتلة خطوط مواصلات . وهذا الواقـع يجعـل الجيوش في الميدان عرضة لضربات الانصار .

٣ – اتاح نمو الطيران والراديو اقامة اتصال وثيق بين العصابات وضمن لها تلقي المدد والمؤن .

*

في سردنا تاريـخ حرب الانصار السوفيات نستقـي معظم معلوماتنا من المستندات الالمانية التي وقعت بين ايدينا. فالالمان كانوا يكثرون من الكتابة إلى جانب اهتمامهـــم بميادين القتال في اوروبا وافريقيا . فقد عثرنا بين اوراق الجيش الالماني على يوميات ومذكرات واوامر وتوجيهات وتعليمات لا حصر لها . والغريب ان معظم مستندات الجيش قد سلمت بالرغم من الدمار الذي سببته الاغارات الجوية

من روسية وحليفة ، وهي اليوم محفوظة في البانتاغون بواشنطن ، وتشكل مصدراً عظيم القيمة يمكن ان يعود اليه المؤرخون العسكريون ومن يشاء دراسة استراتيجيا الانصار السوفيات وتكتيتهم .

الفصل الثاني

الانصار السوفيات في العمل

كان الهر حاكم بلدة جوبيتز التي احتلها الالمـان جالساً وراء مكتبه يرتشف القهوة عندما تناهى إلى سمعه جلبة وضوضاء ، فأرسل معاونه يستطلع الخبر ، فعاد هذا بعد قليل وقد علت وجهه صفرة الموت ولم تخرج من بين شفتيه إلا هذه الكلمة : « أتوا ! » ففهم الحاكم واندفع نحو بندقيته الرشاشة المعلقة بالجدار ، وفي اللحظة نفسها اقتحم الحجرة جماعة من الناس مختلفي الازياء : هـذا يرتدي بزة المانية بما يعلوها من اوسمة ، وذاك بزة ايطالية ، وثالث ثوباً مدنياً الخ ... وبعد نصف ساعة كان الحاكم معلقاً في شجرة بحديقة داره . اما الحامية الصغيرة فقد ابادها الذين شنقوا الحاكم ووزعوا المؤن والاسلحة على السكان .

ليست هذه الحادثة من نسج الخيال ، فقد اوردها احد تقارير الجنرال بونومارنكو رئيس الاركان العامة للانصار السوفيات . واوردت تقاريز المانية حوادث مشابهة. وإلى القارئ وقائع إعترف بها رجال الاستخبارات العسكرية في الجيش الالماني :

« الف رئيس الانصار في منسك عصابة مهمتها اغتيال المفوض الالماني العام . ولكننا احبطنا المؤامرة ... »

إلا ان المفوض العام لاقى حتفه عام ١٩٤٥ بطعنة نجلاء اهوت بها على صدره خادمته الروسية المتصلة بالانصار .

وبين الوحدات الالمانية التي ابادها الانصار الاوكرانيون في خركوف وضواحيها المقر العام لفرقة المصفحات وقائد الفرقة الجنرال براون . وفي قطاع لنينغراد قضى الانصار على فوج آلي كامل وقتلوا الجنرال ر. فون ويرتز وحرسه الشخصي . وهاجم الانصار في روسيا البيضاء المقر العام لفرقة المانية وقتلوا قائد الفرقة الجنرال جاكوبي وجميع معاونيه . واقتحم ستة فدائيين مكتب الجاسوس الالماني فابيان اكنشيتز بمدينة منسك وذبحوه على ركبة سكرتيرته الروسية التي كانت ضالعة مع المهاجمين . وبين ١٩٤٢ و ١٩٤٥ اختفى المئات من الحكام العسكريين والعملاء

والتعاونيين لانهم ارسلوا مواطنين سوفيات إلى العمل الجبري في المانيا [1] . والسلسلة طويلة لا يتسع لها المجال . ولكننا عرفنا من الالمان انفسهم ان الجنرال الالماني بوديان ، وهو قائد جيش ، قتله الانصار ، وان رئيس اركان حرب الجيش الالماني التاسع اصيب بجرح ثخين في اشتباك بين قواته وعصابة روسية ، وان العديد من كبار الضباط اعتبرتهم السلطات العسكرية مفقودين لانهم ذهبوا بمهام ولم يعودوا ، فلا بد من ان يكون الانصار السوفيات قد اعترضوا سبيلهم .

وجدير بالذكر ان التقارير الالمانية تسهب في وصف البزات التي كان يرتديها رجال العصابات . يقول المقدم الدكتور شافر في مقال بعنوان « الكفاح ضد العصابات » ، نشرته جريدة « هامبورغز فرمدمبلات » في ١٩ حزيران ١٩٤٣ :

« ما ان تقع العين على رجال العصابات حتى يدرك المرء انه امام قطاع طرق . فهم على العموم لا يرتدون بزات عسكرية ولا يحملون شارات ، ويفضلون لباس الفلاحين ذا المظهر البريء على ما عداه . واحياناً يرتدون تحت اللباس المدني بزة عسكرية ليتسنى لهم تغيير هندامهم

١ مأخوذة من مذكرات الجنرال بونومارنكو رئيس الاركان العامة لجيش الانصار .

تبعاً للظروف . وقد وقعنا على عصابات بالبزات الالمانية ، وعند تفتيش الاسرى وجدنا انهم يخفون تحت هذه البزات بزات عسكرية سوفياتية . وقال لنا احد اولئك الاسرى ان البزات الالمانية التي يغنمها الانصار تعطى للذين يتكلمون اللغة الالمانية فيسهل عليهم تضليلنا وايهامنا بانهم المان أو تشيك . وفي منسك اوقفت الشرطة العسكرية ذات مساء ثلاث نسوة لمخالفتهن قرار منع التجول ، ولدى تفتيشهن تبين انهن رجال »...

ولم يكن الفتك بالضباط الالمان شغل الانصار الشاغل ، فقد كانوا يؤدون مهام اخرى تبدو الاغتيالات الفردية ثانوية اذا قيست بها . فلنسمع الفلاح الشاب ايليا كوزين يروي لنا كيف توصل ومعاونه إلى نسف قطار مثقل بالذخيرة :

« حفرنا حفرتين في نقطة قريبة نسبياً من الخط الحديدي ، ونزل كل منا في حفرته بعد ما وضعنا على الخط كمية من المتفجرات . وبعد دقائق سمعنا هدير قطار مقبل ، ثم لاحت لنا الانوار المنبثقة من عربة كشافة تتقدم الضحية ، فأطلق من في العربة مدافعهم الرشاشة ذات اليمين وذات اليسار كتدبير وقائي . واقبل القطار ، فخرجنا من مخبئنا مسرعين واشعلنا الفتيل يغلفنا الليل الحالك الظلمة .

وما ان عدنا إلى الحفرتين حتى حصل الانفجار فاهتزت الارض اهتزازاً عنيفاً ، ثم تتالت الانفجارات لأن القطار كان محملاً قنابل من كل نوع وحجم . ورأيت حطـــام العربات يتطاير في الجو ثم يسقط حولي واحياناً فوقي : ولما انتهـى كل شيء لقيت صعوبة في الخروج من بين الانقاض التي تراكمت فوقي [١] . »

وبهذا الاسلوب عينه كانت تنفجر الشاحنات ومستودعات المؤن والذخيرة واحياناً الثكنات العسكرية . وقد خسر الالمان بين ١٩٤١ و ١٩٤٥ الوف القطارات على ايدي فدائيين سلاحهم قليل من الديناميت وبضعـــة امتـــار من الشريـــط ...

وكان ثمة انصار اختصاصهم نسف الجسور . والـــى القارىء عملية نسف كما اعطى تفاصيلها احـــد الـــذين قاموا بهـــا :

« سلكنا بحذر شديد منحدرات جبل لامبينا لأن الالمان كانوا يحتلون القرى المنتشرة على السفوح ، فبلغنا الجسور المطلوب نسفها في الساعة الثالثة بعد الظهر . وكان علينـــا ان نقوم بالعملية ليلاً ، فاختبأنا وراء العليق ريثما يرخي

١ Ilya Kuzin , Notes l'un partisan, (Moscou, 1942) .

الليل سدوله ، ولكن حركة النقل لم تنقطع ، فارجأنا لغم الجسور إلى منتصف الليل . وتمت هذه العملية بدقة وسرعة . وعندما عدنا إلى مخبئنا كانت خيوط الفجر قد لاحت . وبعد دقائق اقبلت شاحنة تقل جنوداً مسلحين بالمدافع الرشاشة ، وما ان مرت على احد الجسور الملغومة حتى امتلأ الفضاء دخاناً ولحوماً بشرية متناثرة ... وقبل انقضاء ثوان معدودات دوى انفجار ثان ورأينا شاحنة اخرى تتناثر في الفضاء ...

« وعلى الاثر دوت صفارات الانذار وبدأت سيارات الاسعاف تفد ، فانسحبنا بحذر إلى المرتفعات . وبعد ربع ساعة من وصولنا دوى الانفجار الثالث فشعرنا بالارض تهتز تحت اقدامنا . وعلمنا فيما بعد ان دبابة ثقيلة مرت على الجسر الثالث فتطايرت اشلاء من فيها .

« وبعد الظهر ارتطمت خمس سيارات مصفحة بالالغام التي نثرناها هنا وهناك على طريق سمولنسكايا — سيفرسكايا . وكانت النتيجة : انهيار اربعة جسور ومقتل ستين المانياً . اما الجرحى فلم تتصل بنا معلومات راهنة عن عددهم [1] . »

لقد تكررت هذه الحوادث طيلة اربع سنوات كل

١ P . K . Ignatov, Partisans of the Kuban, 1945, p. 96.

ليلة تقريباً في المناطق الروسية التي اجتاحتها الجيوش الالمانية . وقد لقي الالمان عناء كبيراً في الاهتداء إلى مخابىء الانصار . ففي «كرش» كان هؤلاء يختبئون نهاراً في منجم ، وفي بعض الاحيان يلجأون إلى المستنقعات في منحنى نهر النيابر . وفي مدينة «ساباروشي» كانوا يختبئون في شبكة المجارير تحت معمل الالومنيوم . وفي لوسوايا كانوا يلجأون إلى المستشفى . واقام الانصار في القرم قاعدتهم في جبال يالا داغ . اما في بوسلا فقد كانوا يضربون ضربتهم ويرتدون إلى المناطق الحرجية . وفي بعض المدن كانوا ينشطون تحت جنح الظلام حتى إذا تنفس الصبح اندمجوا في السكان المسالمين ... وما ان شرعت القيادة الروسية في شن الهجوم المضاد بعد موقعة ستالينغراد حتى فوجىء الالمان المتراجعون بالانصار يهبطون بالمظلات وراء خطوطهم ... ومن يتصفح تقارير الجيش الالماني عن الحرب الصغيرة في روسيا السوفياتية يلمس ما قاسى الألمان من هذه الحرب ومبلغ اليأس الذي استولى عليهم وهم يحاولون عبثاً الحد من نشاط العصابات .

وانا لنلمس حيرة الالمان وارتباكهم في ريبورتاج كتبه مراسل حربي الماني يدعى كورت كلاين شونفلد بعنوان : «غابات الموت» ، قال المراسل يصف ما عانته

احدى القوافل الالمانية :

« بلغت بنا السيارة طريقاً شقه الجيش وسط غابة مترامية الاطراف ، بدت لعيني وكأنها سور اخضر . وكان يحرس مدخل الطريق جندي الماني . فاستوقف السيارة باشارة من يده ، فترجلنا . وشد ما كانت دهشتنا إذ أينا بضع شاحنات متوقفة على الطريق . وقبل ان نستوضح الجندي اسباب هذا التوقف سمعنا لغطاً ورأينا ضابطاً ينفصل عن جماعة من العسكريين ويدنو منا ويقول : « ارى ان نؤلف قافلة ، فذلك اضمن لنا ولكم لان المعلومات التي لدي تشير إلى وجود اشقياء في هذه المنطقة » .

« اخذت سيارتنا مكانها في مؤخر القافلة المؤلفة من اثنتي عشرة سيارة وشاحنة ، وبدأ السير على طريق متصاعدة ، وبغتة اعطت السيارة الامامية اشارة التوقف ، فترجلنا واسلحتنا في ايدينا . ولكن لم يكن هناك شيء ، فقد توقفت القافلة لأن الجسر القائم على الطريق وجد منسوفاً ... وعدنا إلى الخريطة نستنطقها فاذا الطريق تمر في منطقة غنية بمجاري المياه والمستنقعات ، وقدرنا ان اقدام الاشقياء على نسف المعابر والجسور امامنا من شأنه تأخير وصولنا يومين على الأقل .

« بيد ان هذه الصدمة الاولى لم تفتّ في عضدنا فرحنا

نملأ الفراغ الذي احدثه الانفجار صخوراً واغصاناً . وبعد ساعتين استطاعت القافلة استئناف السير .. وكان الليل قد ارخى سدوله ، ففقد الغاب الروعة التي كانت له قبل ساعات ، وبدا لنا ساكناً ، متجهماً ، مثقلاً بالتهديد والوعيد . وزادنا رهبة انتشار الضباب المتصاعد ببطء من المستنقعات والاخيلة الصاعدة من اعماق الليل .

« توقفت القافلة عن السير في الليل البهيم لئلا تفاجأ بكمين من الاشقياء ، فالفنا حلقة حول نيران اشعلناها إلى يسار الطريق . ومن تحصيل الحاصل القول اننا لم نفكر بالرقاد ، فقد كنا كلنا عيوناً وآذاناً تحاول استكناه سر الغاب المتشح بالسواد وتبين مصدر كل حركة لا يد لنا في اتيانها .

« وقبيل منتصف الليل سمعنا صهيل جياد عقبه همس ، وسرعان ما تبين لنا انها احدى دوريات السلامة التابعة للجيش الالماني ، وكانت متجهة شرقاً . وبعد ابتعادها سمعنا طلقات نارية من الناحية التي اتجه صوبها رجال الدورية ، ثم رأينا جراداً منطلقاً بسرعة هائلة يوشك ان يرتطم بسياراتنا المطفأة الانوار . وعلى الاثر جمع الضابط رجاله ووزع عليهم المهام . وكانت الظلمة حالكة بحيث يستحيل على المرء ان يتبين طريقة أو يميز الصديق من العدو . واستولى علينا ونحن نسير في اثر رئيسنا الشعور

الغريب الذي يستولي على كل من يمشي للقاء المجهول .

« وما ابتعدنا عشرين متراً عن سياراتنا – وقد تركناها بحراسة عشرة من رفاقنا – حتى فوجئنا بوابل من رصاص المدافع الرشاشة ، فالقينا انفسنا في المستنقعات الممتدة على جانبي الطريق ورحنا نرد على طلقات العدو بنيران كثيفة . واخيراً ران السكون على المكان ، ومر الهزيع الاخير من الليل دون حادث . وقد اصيب احد رفاقنا في الاشتباك اصابة غير خطرة .

« لم نصل إلى القرية التي كنا شاخصين اليها إلا في مساء اليوم التالي ، لأننا ارتطمنا بعقبات جديدة منها جسران منسوفان وسد من الحجارة ، وقد مرت احدى سياراتنا على لغم فانفجرت وجرح احد الرفاق ، وتعطل محرك سيارة اخرى فتركناها إلى جانب الطريق [1] . »

هذا الاشتباك وامثاله ، مما كان يحصل كل يوم بل كل ساعة ، قد اخضعت اعصاب الالمان لامتحان قاس جداً . ولا ننسى ان حرب الانصار كانت شكلاً من اشكال حرب الاعصاب .

وضعت القيادة الالمانية العليا تقريرها الاول عن

١ Kurt Klein - Schonnefeld , « Die Toedlchen Waelder .

حرب العصابات في ٢٥ تموز ١٩٤١ . وقد اعترفت في هذا التقرير بان نشاط العصابات السوفياتية يهدد خطوط تموين الجيوش الالمانية تهديداً جدياً ؛ وذكرت حوادث اعتداء على الجنود الالمان المنعزلين ، واغارات خاطفة على المؤخرات ، وعمليات نسف عطلت الجسور والمعابر .

ويبدو ان الانصار حصروا نشاطهم بادىء ذي بدء في تنفيذ سياسة الارض المحرقة ، وكانوا يظهرون ، لا وراء مؤخرات الجيوش الالمانية ، بل امامها . وقد اشار تقرير الماني مؤرخ ١٢ ايلول ١٩٤١ إلى اشتباكات حصلت في المنطقة الحرام بين دوريات المانية وعصابات سوفياتية . وفي ٧ تشرين الثاني من السنة نفسها اشار تقرير آخر إلى احتجاب الانصار فور تقهقر الجيش الاحمر . ذلك ان الانصار كانت مهمتهم في مستهل الهجوم الالماني حرمان العدو الافادة من الارض المحتلة ، فكانوا يتلفون الزرع والضرع والمؤن والآلات والمؤسسات الصناعية ، ويطاردون في الوقت نفسه المظليين . وفي منتصف خريف ١٩٤١ بدأوا نشاطهم وراء خطوط الالمان . وحتى ذلك التاريخ لم تكن الحرب الصغيرة قد اثرت في معنويات الغزاة ، فقد جاء في تقرير وضعه قائدا الجيشين السادس والحادي عشر « ان جنود الفوهرر لا يأبهون لتحرشات العصابات السوفياتية

٣م ». وفي تقرير آخر مؤرخ ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤١ يقول القائدان ما حرفيته : « تدور رحى معارك جديدة وراء الجبهة حيث يهاجم رماة ماهرون بالبستهم المدنية الجنود المنفردين واحياناً وحدات بكاملها . ويحاول الانصار قطع خطوط تموينيا بنسف الطرق والجسور ، كما يحاولون اتلاف الزرع والمؤن وتدمير المصانع ، مما يجعل السكان المدنيين عرضة للمجاعة . »

وما عتمت حرب الانصار حتى بدأت جدياً . فقد ورد ، في مفكرة رئيس مصلحة مكافحة الجاسوسية لدى الجيش الالماني الحادي عشر ، ما يلي : « يستفاد من التقارير الواردة بتاريخ اليوم (١٤ تشرين الثاني ١٩٤١) ان جماعات من الانصار ، حسنة التنظيم مكتملة التجهيز ، تعمل في القرم الجنوبية ، منطلقة من قواعدها في جبال يالا ، وهي قواعد مكتظة بالسلاح والمؤن والماشية ، الخ ... اما مهمة اولئك الانصار فهي تخريب شبكة المواصلات والخطوط السلكية والهاتفية ، والاغاراة على مؤخرات جيوشنا وقوافل تموينيا . واشارت تقارير المانية اخرى إلى نشاط الانصار في حقل التجسس لحساب الجيش الاحمر .. وفي كانون الأول كتب قائد احدى المناطق العسكرية إلى الفوهرر يقول : « لقد تفاقم خطر الانصار في منطقتي

تفاقماً يهدد سلامة رجالنا . »

وفي تقرير وضعه قائد الاستخبارات الالمانية في القرم بتاريخ ٢ كانون الثاني ١٩٤٢ ان التدابير المتخذة للحد من نشاط الانصار لم تحل دون استمرار اطلاق النار على سيارات الجيش . وجاء في التقرير ان جماعات مسلحة هاجمت عدداً من القرى المحتلة للاستيلاء على المواد الغذائية والمواشي . وخلال الاشتباك الذي حصل استاق المهاجمون السكان المدنيين المتعاونين مع الالمان ، واقاموا حواجز على بعض الطرق تغطية لانسحابهم .

وبلغت مضايقة الانصار للقوات الغازية حداً اضطرت معه القيادة الالمانية العامة إلى انشاء هيئة اركان خاصة لدى احد جيوشها مهمتها رسم الخطط الكفيلة بالحد من نشاط المحاربين السوفيات غير النظاميين . وفي الوقت نفسه أنشئت لدى سائر الجيوش الالمانية وحدات مهمتها مواجهة الانصار . وقد اتضح للالمان ان القائمين بالحرب الصغيرة مجهزون باحدث انواع الاسلحة . واكتشفوا في مخابىء احدى العصابات كميات كبيرة من الرشاشات والرمانات اليدوية و البنادق والمسدسات الرشاشة والمسدسات الأوتوماتية.

وفي ٥ كانون الثاني ١٩٤٢ اشترك الانصار في عمليات واسعة النطاق قام بها الجيش الاحمر على ضفاف البحر

الاسود . وقد اعطت قيادة الجيش الالماني الحادي عشر عن هذه العمليات التفاصيل الآتية :

« في الساعة الحادية عشرة ، من ليل ٥ ــ ٦ كانون الثاني ١٩٤٢ سمع الخفراء الليليون هدير محركات في المرفأ . وفي الوقت نفسه ابلغت قيادة مركز « ساكي » الذي يبعد عن جيباتوريا عشرين كيلومتراً انها سمعت هدير محركات في مياه ساكي . وعلى الاثر اعطيت اشارة الانذار والحذر في جيباتوريا .

« استطاع العدو انزال قوات على نقاط من الشاطىء وفي منطقة الميناء نفسها . واضطرت الميليشيا المتضامنة معنا إلى الانكفاء امام عدو يفوقها عدداً . ورددنا نحن بقصف مدفعي عنيف . واتضح من اقوال الذين اسرناهم ان ناقلتين سوفياتيتين كبيرتين ابتعدتا عن الميناء حالما بدأت مدفعيتنا نشاطها .

« وقد رافق نزول القوات المعادية هجوم شنه الانصار من داخل المدينة يعاونهم المظليون . وحاولت الحامية الالمانية منع هؤلاء من الاتصال باولئك فاسقط في يدها . »

ووضع الضابط الالماني المشرف على مركز الهاتف في المدينة تقريراً مفصلاً عن الدور الذي قام به الانصار في

تلك الليلة جاء فيه ما يلي :

« ما ان سجلت ارصادنا وجود زوارق قاذفة للطوربيد في المياه الاقليمية حتى استعدت مدفعيتنا للعمل ، ونجحت في احباط محاولة انزال قام بها العدو .وبعد نصف ساعة خرج الانصار من مخابئهم وهاجموا مركز الهاتف من اربع جهات ، واخرسوا الرشاشات التي حاولت حماية المركز ، ثم دمروا المركز بالرمانات اليدوية . وقد استطعت انا النجاة وبلوغ بلدة ساكي . واعتقد ان معاوني قد ابيدوا جميعاً برصاص الانصار . »

ويستفاد من التقارير الاولية ان ٦٥٠ — ٧٠٠ جندي سوفياتي نزلوا اليابسة ، وان المظليين والانصار الذين اسهموا في العملية لا يزيد عددهم على الالف . وقد استطاع هذا العدد القليل نسبياً من النظاميين والانصار اجلاء الالمان عن المدينة ، ولم يتسن لهؤلاء استردادها إلا بعد ثمانية ايام .

ولكن لنا على التقارير الالمانية ملاحظتين : الأولى ان عدد الانصار الذين اشتركوا في العمليات غير واضح . فقد خسر الجيش الاحمر ، على ذمة التقارير الالمانية ، ٨٠٠ رجل بين قتيل واسير . ولكن التقارير الاولية ذكرت ان عدد المهاجمين بين جنود ومظليين وانصار بلغ ١٧٠٠ ،

ومعنى هذا ان عدد المظليين والانصار كان تسعمئة . ومع ذلك ورد في احد التقارير ان خسائر الروس بلغت ١٣٠٣ انصار قتلوا ، منهم ١٢٠٠ اعتقلوا في صفوف المدنيين واعدموا في ساحة المدينة .

ويستفاد من ذلك كله ان الالمان اعدموا رمياً بالرصاص عدداً كبيراً من السكان المدنيين الذين لم يكن لهم يد في ما حدث ، ولتغطية هذا العمل الاجرامي بالغوا في تقدير عدد الانصار الذين اشتركوا في العملية .

أما الملاحظة الاخرى فهي ان الانصار عملوا وكأنهم جزء من الجيش النظامي ، ولم يفقد الالمان سوى ٧٥ قتيلاً و ١٢٠ جريحاً . وقد افاد الانصار الحمر من الامثولة ، فما تصدوا مذ ذاك لعدو يفوقهم عدداً واستعداداً .

وبعد الهجوم على جيباتوريا اخلد الانصار إلى السكون بعض الوقت . وذكر تقرير قيادة الجيش الالماني الحادي عشر المؤرخ ١٥ كانون الاول ان توقف نشاط « الاشقياء الحمر » مرده إلى رداءة الاحوال الجوية « فالاشقياء يعلمون ان آثار اقدامهم على الثلج ستنم عن مكان وجودهم » . ولكن دوائر الاستخبارات التابعة للقيادة نفسها ذكرت في تقرير لها مؤرخ ٢٨ كانون الاول ان الانصار خرجوا

من مخابئهم وان نشاطهم « اوجد حالة يمكن وصفها بانها بالغة الخطورة » .

لم يعدُ التقرير الحقيقة . ففي مستهل كانون الاول ١٩٤١ توقف الهجوم الالماني واعلنت القيادة العامة ان العمليات الهجومية ستتوقف طيلة فصل الشتاء . وعلى الاثر شن السوفيات هجوماً مضاداً بدأ في الشمال ، ثم اخذ بالامتداد حتى شمل الجبهة كلها . ونشط الانصار بدورهم ، وانضم اليهم الالوف من السكان هرباً من شراسة الالمان .

ذلك ان المحتلين ردوا على الهجوم السوفياتي بقتل المدنيين بالجملة ، وبأخذ الرهائن بالالوف ، وراحوا يماطلون في الغاء نظام السخرة . ولما اشتد ضغط الانصار وتعذر وصول المؤن من المؤخرات عمدوا إلى مصادرة المواشي والحبوب ، وخفضوا كمية المواد الغذائية المخصصة للسكان ، كما فرضوا على المناطق المحتلة تقديم عدد معين من الشبان والشابات للعمل الجبري في المانيا .

وقد استغل الانصار كراهية السكان المدنيين للقوات المحتلة فوزعوا عليهم نشرات تدعوهم إلى الانقضاض على العدو . ووقع الحلفاء على احدى هذه النشرات بين محفوظات الجيش الالماني ، فاذا هي تضرب للروس على وتر حساس :

« اذكروا ايها المواطنون كيف هب الأنصار عام ١٨١٢ يعاونهم سكان سمولنسك وضواحيها ، مسلحين بالفؤوس والعصي والمناجل ، لمقاتلة جيوش نابوليون ، واذكروا بطلتنا القومية ، في اولى حروبنا الوطنية ، الفلاحة سيتشفكا فاسيليا كوشينوي ، واقتدوا بها لأن الوطن بحاجة الى سواعدكم . »

وقد كان لهذه المناشدات تأثيرها في نفوس السكان ، فانضموا إلى وحدات الانصار بالألوف . وادرك السوفيات اهمية هذا التحول ، كما ادركوا ان تأليب السكان ضد العدو المحتل لا يؤتي ثماره ما لم يتول قيادة الحرب الصغيرة رجال يتحلون بالحزم والخبرة . وقد جاء في تقرير وضعته القيادة الالمانية العليا ان السوفيات انزلوا وراء الخطوط الالمانية بالمظلات حزبيين متعصبين وضباطاً كباراً مهمتهم تنظيم الانصار وجعلهم اداة قتال حقيقية .

وأنهالت التقارير على مقر الفوهور من قادة المناطق وكلها تتحدث عن نشاط الانصار : « ظهر أربعة وعشرون شقياً في قرية دمتروفسكا إلى الجنوب من ساكي وقطعوا المواصلات بين ساكي وسمفروبول » ... « افاد القادمون من غوميل ان الطريق بين هذه المدينة وتشرنيغوف تحت رحمة الاشقياء » ... « في ضواحي بريانسك اغتال رجال العصابات

دعداً كبيراً من الرؤساء المحليين الذين عينتهم سلطات الاحتلال » ... « نشطت العصابات في القرم نشاطاً ملحوظاً . ويغلب على الظن ان عملية النزول التي تمت اخيراً قد مهدت لها العصابات بعمليات استكشاف فردية » ... « اعد اسرى المستشفى العسكري في منسك العدة لحركة عصيان مسلح . وتقضي الخطة الموضوعة بأن يثور في ١٤ كانون الثاني ١٩٤٢ العناصر المسلحة في المستشفى العسكري رقم واحد وفي مستشفيات الاسرى ومعسكرهم ، وحتى الذين يقيمون في مصنع فورشيلوف . أما السلاح فتقضي الخطة بأن يحصلوا عليه من الجنود الروس الملحقين بخدمة الضباط الالمان » ... « هاجم الانصار قرية كيكينييس ليلاً فنهبوا المؤن والمواشي وخطفوا عدداً من السكان » ... « هاجم عشرة من الفلاحين المسلحين قطاراً وست شاحنات عسكرية على طريق يالطا » ... « في القطاع الشرقي شن مئات من الانصار في مقاطعة كارازوبازار اربع اغارات خاطفة على قوافل التموين الالمانية ، وكان المغيرون يرتدون البسة بيضاء» ... « قام الانصار بهجوم مباغت على قرية تشوراك وخلصوا الاسرى الذين كانت قواتنا تقودهم إلى المعسكر بعد اشتباك عنيف استعمل الانصار خلاله الرمانات اليدوية والقنابل المثيرة للدموع . وقد وجدت قواتنا بين القتلى

ثلاث نساء » .

هذه المقتطفات اخذت من تقارير رفعها إلى القيادة الالمانية العليا قطاعان من قطاعات الجبهة المترامية الاطراف. اما الحوادث التي اشارت اليها تلك التقارير فقد وقعت في الاسابيع الاولى من عام ١٩٤٢ . ففي تلك الأثناء كان الانصار قد نشطوا نشاطاً كبيراً في القطاع الجنوبي عموماً وفي القرم على الخصوص . ولكن « اعمال الشقاوة ما لبثت ان امتدت إلى الجبهة الوسطى وإلى بعض القطاعات ذات الاحراج الكثيفة في الشمال [١] . »

وكان المراسلون الحربيون الالمان قد بدأوا يوافون صحفهم بريبورتاجات عن الحرب الصغيرة . فكتب مراسل جريدة « دنزيجز فوربوستن » في ١٧ شباط ١٩٤٢ يقول : « تدور يومياً رحى معارك طاحنة بين قواتنا والانصار في الخطوط الخلفية . » وفي ١٣ نيسان كتب مراسل جريدة « كولنيشي تسايتونغ » يقول : « ان تضامن السكان المدنيين مع الاشتراكيين في ما يسمونه حرب العصابات يجعل مهمة جنودنا عسيرة شاقة ، فهم مضطرون إلى مواجهة الجيش الاحمر في ساحات القتال ، وإلى حماية اجنحتهم ومؤخراتهم من

١ من اذاعة الجنرال ديتمار في محطة برلين بتاريخ ٦ تموز ١٩٤٣ .

غارات العصابات المتواصلة » . ونشرت جريدة « هامبورجر تاجبلات » في ٢٥ حزيران ١٩٤٢ تصريحاً للجنرال بول هاس جاء فيه قوله : « لقد اضحت الحرب الصغيرة حرباً منظمة ، وباتت تشكل خطراً اكيداً على مواصلات جيشنا وسلامته . »

بيد ان هذه الحرب الصغيرة المنظمة كانت تزداد عنفاً يوماً بعد يوم ، وعندما اعترف القائد الالماني بول هاس بخطورتها لم تكن قد بلغت ذروة العنف بعد . فالاغارات الخاطفة على القوافل والمؤخرات والمدن والقرى كانت غايتها الاستيلاء على المؤن . وقد ذكرت التقارير التي وردت إلى القيادة العليا في شهر نيسان ١٩٤٢ ان نشاط العصابات لم يتعدَّ هذه الغاية في معظم القطاعات . ولكن الانصار عدلوا خطتهم في النصف الثاني من ربيع ١٩٤٢ فراحوا يقطعون الطرق على القوافل ، ويلغمون الجسور والمعابر والخطوط الحديدية ، ويغتالون الشخصيات الالمانية ، ويرهقون الاجنحة والمؤخرات ، ويهاجمون المعسكرات لتحرير الاسرى ، ناهيك بعمليات الاستطلاع والكمين [1] .

[1] اورد هذه العمليات بالتفصيل الجنرال السوفياتي S . A. Kovpak في كتابه Our Partisan Course ، وورد ذكرها في مذكرات P . K . Ignatov التي

وسرعان ما شملت مهام الأنصار عمليات اشد خطورة وتأثيراً : اغارات على مواقع المدفعات ، وهجمات خاطفة على الثكنات ، ونسف مصافي البترول والقطر العسكرية والمصانع والخزانات . وفي اول ايار ۱۹٤۲ اذاع جوزف ستالين امراً يومياً جاء فيه : « ان تخريب المصانع وتدمير المستودعات ونسف القطارات العسكرية قد باتت من الامور العادية المألوفة التي يقع مثلها كل يوم ، وامتدت الحرب الصغيرة إلى يوغوسلافيا وعمت الاراضي السوفياتية التي يحتلها العدو . واني ادعو الانصار ، رجالاً ونساء ، إلى مضاعفة الجهد والعمل على تدمير مواصلات الاعداء ووسائط النقل التي يستخدمون ، ومهاجمة مراكز اركان حرب القيادات ومستودعات المؤن والذخيرة ... »

وكان الانصار قد اقاموا فيما بينهم نوعاً من المباريات في تنفيذ امر ستالين . ففي ٢ ايار ۱۹٤۲ ضبط الجيش الالماني الحادي عشر الوثيقة الآتية في مقر قيادة الانصار الحمر بيالطا :

« نحن الانصار في قطاع يالطا قد حملنا السلاح في وجه العدو الفاشستي المحتل تلبية للنداء الذي وجهه المارشال

نشرت عام ١٩٤٥ بعنوان « الانصار في قطاع كوبان » ، وفي يوميات P. Pavlenko التي نشرت ١٩٤٢ بعنوان : « لهيب الانتقام » .

رئيس السوفيات الاعلى إلى سكان المناطق المحتلة لمناسبة عيد الجيش الاحمر ، وقررنا بالاجماع الانضمام إلى وحدات الحرب الصغيرة والتقيد بالتعليمات التي تعطى لنا والعمل على ابادة اكبر عدد ممكن من المحتلين . ومن اجل ذلك ندعو المواطنين كافة إلى الدخول في مباراة الابادة هذه متقيدين بالقواعد الآتية :

« — على كل مواطن ان يقتل على الاقل خمسة فاشستيين أو خمسة خونة .

« — عليه ان يسهم على الاقل في ثلاث عمليات في الشهر .

« — لا يجوز ان يُترك رفيق أو شيوعي جريح بين يدي العدو . »

وكان نشاط الانصار قد اشتد قبل صدور نداء ستالين ، فسجل تقرير « مصلحة السلامة » في الجيش الالماني خلال النصف الثاني من نيسان « تزايد اغارات العصابات على مستودعات المؤن والذخيرة ، واشتداد خطر حرب الكمين في الجبهتين الجنوبية والوسطى » . ولاحظ التقرير ان الأنصار كانوا قبل حلول فصل الربيع قابعين في مخابئهم لا يبرحونها إلا لمهاجمة القوافل المنعزلة او القرى غير المحمية جيداً ليعودوا ببعض المؤن والالبسة . ولكن نشاطهم اتخذ في

الربيع طابعاً جديداً إذ بات شعارهم زرع الدمار والرعب في كل مكان . »

اجل ، لم يعد الانصار مشدودين إلى مخابئهم في الاحراج والمستنقعات والمناجم والجبال ، فقد خرجوا منها وانتشروا في طول البلاد وعرضها ، منتقلين من قطاع إلى آخر ، متعاونين مع الجيش النظامي تارة ومع رفاقهم المحليين طوراً ، وصار بالامكان انزالهم من الجو وراء خطوط العدو . وفي ذلك يقول تقرير « مصلحة السلامة » في الجيش الالماني : « بدأت الطائرات المعادية تنزل العصابات بالمظلات مجموعات صغيرة وراء خطوطنا واحياناً امامها » . بيد ان تقارير دوائر الاستخبارات الموضوعة في التاريخ نفسه تشير إلى انزال مجموعات كبيرة من الأنصار في القطاع الجنوبي : « انزل العدو في ٢ ايار ٤٠٠ مظلي من رجال العصابات في منطقة يالطا ، وقد كان علينا ان نكافح نشاط هؤلاء في حقول التخريب والتجسس . »

ودلت تقارير اخرى وصلت إلى القيادة العليا في ايار على ما عاناه الالمان من نشاط الأنصار كجواسيس يجمعون المعلومات ويلتقطون المخابرات الهاتفية وحتى اللاسلكية .

وفي ١٤ ايار اعتقلت الشرطة العسكرية الالمانية روسياً لاشتباهها بنشاطه . وهذا هو نص التقرير الذي وضعته

بشأنه :

« اوقفنا صباح اليوم روسياً في الثالثة والعشرين من سنيه تخرج جاسوساً في اقل من اسبوعين ، وعهد اليه رؤساؤه باداء المهمة الآتية في منطقة اميليانوفكا كوليستر :

« أ — معرفة الوحدات المعسكرة في المنطقة .

« ب — تحديد عدد هذه القوات .

« ج — معرفة مكان التحصينات .

« د — وصف معنويات السكان .

« هـ — قطع الخطوط الهاتفية والبرقية .

« و — استدراج الضباط الالمان إلى بيوت الدعارة وتخديرهم وتفتيش جيوبهم بحثاً عن الوثائق المفيدة .

« وقد قبضت احدى دورياتنا على الجاسوس بينما كان يحاول التسلل داخل خطوطنا . »

وفي ما يلي تقارير اخرى وضعتها دوائر الاستخبارات التابعة للجيش الحادي عشر :

« بعد سقوط فيودوسيا وكرش احضر الحمر إلى القوقاز ثلاثة روس : مهندس في العقد السادس ، وجندي قديم ، وتتري ، وعهدوا اليهم بمهمة التجول في نقاط معينة من الشاطئ واعطاء البحارة الروس اشارات ترشدهم إلى الاماكن التي يمكنهم النزول فيها . وبعد انتهاء مهمتهم

تتعين العودة على كل منهم إلى المنطقة المحتلة التي جاء منها . »

« على اثر عملية قامت بها قواتنا ضد الانصار عثرت على وثيقة يستدل منها ان روسياً عمره اربعون عاماً تلقى امراً بالبقاء في المنطقة بعد انكفاء رفاقه ليعاين مواقع القوات الالمانية والتحصينات التي تنشئها ، ويحاول معرفة اماكن مستودعات المؤن والذخيرة والمحروقات ، ثم يوافي قيادة الجيش الاحمر وقيادة الانصار بالمعلومات التي تتجمع لديه . »

« ارسل الحمر الروسي موروزف فلادمير . عمره ٣٤ عاماً ، ومعه ثلاثة عشر رجلاً ، دربوا في كراسنودار على اعمال التجسس والتخريب ، إلى مدينة كرش في ١٨ شباط ١٩٤٢ ، وكلفوا القيام بالمهام الآتية :

« أ — كم عدد القوات الالمانية في مثلث ايسلام — تيركس — جوشي ؟

« ب — ما هو اتجاه القوافل ؟

« ج — اين تقوم مستودعات الذخيرة والمحروقات ؟

« د — اين انشأ الالمان مطاراتهم وما هو عدد الطائرات ؟

« وكان عليهم كذلك ان يوافوا رؤساءهم باسماء الروس التعاونيين واسماء المخاتير الذين عينتهم السلطات المحتلة

مقدمةً لاختطافهم أو لاغتيالهم . »

ونوهت تقارير كثيرة بنشاط النساء الروسيات : « اوقفنا ثلاث نساء بينهن ام وابنتها ، واتضح انهن من الانصار ، وان رؤساءهن عهدوا اليهن بمهمة السعي إلى الاتصال بجنودنا في مدينة سمفروبول واستدراجهم ، افرادياً ، إلى الغابة للفتك بهم . وقد وجدنا في حوزة احداهن لائحة باسماء ضباط مطلوب استدراجهم والفتك بهم . »

« صرحت لنا فتاتان احداهما في التاسعة عشرة والاخرى في السادسة عشرة بأن طائرة روسية انزلتهما في القرم بمهمة عهدت بها اليهما دوائر الاستخبارات التابعة للجيش الاحمر . وقد عثرنا معهما على جهاز ارسال وخرائط وكمية كبيرة من المواد الغذائية . وكان عليهما ان تراقبا :

« ١ — حركة النقل على الخطوط الحديدية بين ديشانكوي وفونكا .

« ٢ — حركة المطارات وعدد الطائرات التي تقوم منها يومياً . »

حتى الاولاد قاموا بعمليات تجسس خطيرة . ففي ١٧ شباط ١٩٤٢ تلقى قائد الجيش الالماني العاشر من رئيس « مصلحة السلامة » التقرير الآتي :

« اعدمنا صباح اليوم في بلدة كرش فتاة روسية في

الرابعة عشرة من سنيها لانها كانت تمد الانصار بالمعلومات. »

وسجلت تقارير وضعها البوليس العسكري الالماني في الجنوب في الفترة الممتدة بين ٢٥ ايلول و ٢٥ تشرين الأول ١٩٤٣ ، الاحداث الآتية :

« اوقف في ضواحي ليشوفسكا قرب نهر النيابر تلميذ في الثانية عشرة من سنيه يدعى ديريشنكو . وقد تبين خلال التحقيق معه انه قام بمهمتين خطيرتين وكان يتلقى التعليمات من الملازم ايفان بروسنكو . واوضح الفتى ان رؤساءه ناطوا به مهمة مراقبة عمليات النقل البري ، واوعزوا اليه بأن يعتمد على ذاكرته فلا يدون شيئاً لئلا يفضح نفسه . واعترف ديريشنكو بانه انتقل اكثر من مرة إلى الخطوط الروسية ناقلاً معلومات ذات قيمة ، كما اعترف بأنه اختلط بالجنود الالمان متظاهراً بالتسول ، وقال ان رئيسه الملازم كان يكافئ جهوده بهدايا صغيرة كالخبز والحلوى والسكاير . وقد اعدم الفتى رمياً بالرصاص . »

« اعترف فتى في الثانية عشرة من سنيه ، أوقفه البوليس السري الالماني ، بانه يعمل لحساب ايفان فيروتسك الضابط في فرقة الفرسان الذي درب ثلاثين فتى وفتاة في مثل سنه . وقال انه قام بسلسلة عمليات استطلاعية في قطاع خركوف . وقد اوقف بينما كان يحاول معرفة عدد المطارات الالمانية

وطريقة الالمان في حماية الجسور والمعابر والخطوط الحديدية . »

« اعترف جاسوس روسي عمره اربعة عشر عاماً بأنه يعمل لحساب الملازم بيلوسو نيقولاي الذي دربه في شباط ١٩٤٢ ، وقال انه قام مذ ذاك بخمس مهام ، فجمع معلومات مفيدة عن تحركات الجيوش الالمانية في الجبهة الوسطى ، واستطاع اخراج قطارين عن الخط في منطقة لوسوايا ، وقد وعده رئيسه بمنحه وسام النجمة الحمراء إذا قام بعشر عمليات ناجحة . »

ليس من داع للارتياب في صحة هذه الوقائع ، فقد اكدت الجريدة الرسمية السوفياتية ان النساء والاولاد يسهمون في حركة الانصار كمقاتلين فعليين أو كمساعدين [١] . وذكرت الجريدة ان جماعة من الاولاد بقيادة فتى في الثانية عشرة من سنيه نقلت كمية من المتفجرات ووضعتها تحت جسر يحرسه جندي الماني ، بينما كان النعاس يداعب اجفان الجندي . وبعد ان اشعلوا الفتيل انسحبوا إلى الغابة المجاورة ، وما لبث الجسر ان تطاير في الفضاء .

١ اخبار الحرب السوفياتية Soviet War News وقد كانت تظهر في كراس دوري تصدره السفارة السوفياتية بلندن .

وقد تميزت حرب العصابات بالقسوة ، فالانصار كانوا يقتلون الجرحى والاسرى لانه لا يسعهم سوقهم معهم ، ولم يكن للرحمة سبيل إلى قلوبهم لعلمهم ان العدو لن يرحمهم هم .

ولم يرحم العدو كذلك السكان المدنيين . فبعد ما لمس الالمان عجزهم عن تصفية حساب الانصار راحوا ينتقمون دون شفقة من المدنيين المسالمين . بيد ان هذا الاسلوب الانتقامي لم يؤثر في معنويات الانصار . حتى انهم كانوا يعرضون حياة مواطنيهم الآمنين للهلاك بتسميمهم مياه الشرب بغية اهلاك العدو المحتل .

ولا يتسع المجال هنا لتعداد الخسائر التي كابدها الروس في سعيهم إلى توفير سبل النجاح للحرب الصغيرة ، فقد قتل الالمان آلافاً من الانصار ، واعدموا الآلاف ، لاشتباههم بتعاونهم مع الانصار ، واخذوا آلاف الرهائن الذين لم يعرف احد ما حل بهم من ثم . ولكن الانصار اصابوا نجاحاً عوّض ذلك كله ، ففي منتصف ١٩٤٢ كانوا يسيطرون على مساحات واسعة خلف خطوط العدو . وقد اعترف تقرير رفعه قائد الشرطة العسكرية إلى القيادة الالمانية العليا في اواخر تموز ١٩٤٢ بأن الانصار يهددون جدياً المناطق الآتي بيانها :

في الشمال :

١ — منطقة المستنقعات الممتدة إلى الجنوب الشرقي من مدينة دنو .

٢ — منطقة كوداوى .

٣ — مدينة اوبوتشكا وضواحيها .

٤ — المنطقـة المحيطـة بالطريقين الممتدتين بين كراسنوى واوبوتشكا .

٥ — قطاع جيري .

٦ — المنطقـة الحرجية إلى الشرق من غداو .

٧ — المنطقة الحرجية إلى الشرق من بلابسكو .

٨ — المنطقة الحرجية إلى الجنوب من الطريق الممتدة بين مدينتي مارامووركا واوكينوفو .

في الوسط :

١ — القسم الغربي من منطقة فيازما .

٢ — القسم الشمالي من منطقة غلوشا .

٣ — الاقسام الشمالية الغربية من منطقة ستاراي .

٤ — القسم الجنوبي من منطقة غلوسك .

٥ — منطقة بوتشيب .

٦ — منطقة بوبرويسك .

٧ — القسم الشمالي الشرقي من المنطقة التي يمتد فيها الخط

الحديدي المؤدي إلى كلينزي .

٨ – قطاع كينزي .

٩ – منطقة سمولنسك .

١٠ – منطقة بيريزينو .

١١ – منطقة بولوسك .

١٢ – منطقة لوجي واورشا .

١٣ – القطاع الشرقي من منطقة فيتبسك .

١٤ – القسم الجنوبي من منطقة اورشا .

١٥ – الطرق الممتدة في قطاع غوركي – دروبان .

١٦ – قطاع موجيليف .

١٧ – منطقة لوبل .

١٨ – القسم الجنوبي الشرقي من منطقة ليوبان .

في الجنوب :

١ – القسم الجنوبي من قطاع خركوف .

٢ – منطقة بولوفا .

٣ – منطقة نوفغورود التي يسيطر عليها الانصار سيطرة تامة .

٤ – القسم الجنوبي من شبه جزيرة القرم .

واورد تقرير وضعه الجنرال الروسي بونومارنكو امثلة شتى عن اعمال الانصار ، نذكر منها الآتي بيانها :

أباد الاوكزانيون الوحدات الالمانية التي نيطت بها حراسة الخط الحديدي في سارني . ونسفوا الجسور الرئيسة على نهري بتيش ودريسا . واجلى الانصار في روسيا البيضاء قوات العدو عن محطة سلافنوي ، وابادوا حامية سلوتسلك . ونسف انصار منطقة اوريل جسور نافلايا وفيكونتز بعد ما ابادوا القوات المعادية التي كانت تتولى حراستها . وحرق الانصار في منطقة سمولنسك ثلاث ثكنات المانية . وقام انصار لنينغراد بعمليات واسعة النطاق قتل خلالها القائد الالماني فون ويرتز . واحتل الانصار الروس والفنلنديون الثكنات الالمانية الاربع في جزر بولشوي كريمنتز . ودمر انصار منطقة موسكو مقر القيادة الالمانية في اوغودسلك زافود . واباد انصار منطقة كالينين حامية سوتوك ونهبوا المؤن والذخيرة والوقود . وفي القرم اباد الانصار ١٢٠٠ ضابط وجندي تابعين لفرقة القناصة الثالثة .

وقد اعترف هتلر في امر اصدره بتاريخ ٦ ايلول **١٩٤٢** باستفحال خطر الحرب الصغيرة قال : « ان العصابات الحمراء تهدد خطوط تموينننا تهديداً جدياً [١] . »

١ ما ابعد هذا الاعتراف عن تبجح هتلر في مؤتمر عقد في دار المستشارية قبل مهاجمة روسيا بخمسة ايام ، فقد قال الفوهرر يومئذ : « **اما الانصار** فان نشاطهم لن يخيفنا ، ففي وسع جيشنا القضاء عليهم حيثما وجدوا . »

وتزايد نشاط الانصار وازداد خطرهم استفحالاً لما بدأ الالمان ينفذون اوامر الغوليتر سوكل مفوض العمل العام القاضية بمصادرة كل روسي وروسية يصلحان للعمل الجبري في المانيا . وفي ما يلي تقدير تقريبي للاضرار التي الحقها الانصار باعدائهم خلال العامين الاولين من الحرب ، وهو تقدير مستقى من تقرير الجنرال الروسي بونومارنكو :

« اباد الانصار ثلاثمئة الف الماني منهم ثلاثون قائداً برتبة جنرال ، و ٦٣٣٦ ضابطاً و ١٥٢٠ طياراً ، واخرجوا ٣٠٠٠ قطار عن الخط ، ونسفوا ٣٢٦٣ جسراً ومعبراً و ١١٩١ دبابة وسيارة مصفحة و ٤٧٦ طائرة و ٣٧٨ مدفعاً و ٦١٨ سيارة اركان حرب و ٤٠٢٧ شاحنة و ٨٩٥ مستودعاً . »

وفي منطقة لنينغراد وحدها وحتى آذار ١٩٤٤ يؤكد الانصار انهم قتلوا ١٠٤٢٤٢ المانياً ، ودمروا ١٠٥٦ قاطرة و ١٨٦٤٣ عربة ومزكبة ودبابة ، وابادوا في اوكرانيا ٣١٠٠٠٠ الماني ، ودمروا ٤٠٦٠ قاطرة و ٣٩٧٠٠ عربة من عربات الشحن ، ونسفوا ستة آلاف جسر ومعبر و ٨١٠ دبابات و ٣٢٤ مدفعاً و ١٠٨ طائرات . وفي ٢٨ شهراً من الحرب الصغيرة في القرم ابادوا ١٨٩١٠ المان .

اما الالمان فليس لدينا ارقام رسمية بعدد خسائرهم ،

ولكن لدينا شهادات فريق من ضباطهم . فقد لخص المارشال فون مانشتين التقارير التي تلقاها من اركان حربه قال :

« بدأ الانصار يشكلون خطراً فعلياً فور احتلالنا القرم (في تشرين الاول ١٩٤١) ، فقد كان في شبه الجزيرة منظمة سرية مدربة ومجهزة باحدث ادوات الفتك . وكانت المنظمة تضم ثلاثين فوجاً مدربة على اعمال النسف . وقد تجمعت قوات الانصار الرئيسة في جبال يالا داغ ، وكان لها معاونون وعملاء في كل مكان ولاسيما المدن .

« وحاول الانصار السيطرة على اهم طرق المواصلات في شبه الجزيرة ، وراحوا يهاجمون السيارات المنعزلة والشراذم العسكرية والدوريات . وفي الليل لم يبقَ في استطاعة القوافل الصغيرة السير على الطرق ، فاضطررنا لتسيير قوافل كبيرة محروسة .

« وقد قضيتُ انا في القرم احد عشر شهراً ، واذكر جيداً ان تدابيرنا ضد العصابات الحمراء لم تجدِ نفعاً . »

وسئل الفيلد مارشال ان يوضح عدد الهجمات اليومية التي كان الانصار يشنونها ، فأجاب :

« لا يسعني اعطاء رقم معين ، ولكني اذكر ان

الانصار اغاروا على احد الخطوط الحديدية زهاء الف مرة في غضون سبع ساعات[1] . »

لقد عددنا خسائر الالمان بالارواح والعتاد ، ويجدر بنا ان نشير إلى ما نال طاقتهم على النضال من ضعف وكذلك معنوياتهم ، فقد كانوا يحاربون على ارض يمكن ان يستحيل سكانها كافة بين ساعة واخرى عصابات مسلحة . كانوا يعيشون في قلق دائم ، فكل حركة غير عادية قد تكون نذيراً باغارة مباغتة للانصار . وكثيراً ما ادى نسف القطارات ومستودعات الذخائر إلى تأخير العمليات الهجومية أو إلى الغائها ، وادى احياناً إلى تخلي الجيوش عن مراكزهـا الدفاعية . يقول الجنرال الروسي بونومارنكو في يومياته : « في ثمانية ايام نسف الانصار الاوكرانيون ثمانية عشر قطاراً كانت متجهة إلى الجبهة » . وهكذا حرمت الجبهة مدداً كانت بحاجة اليه .

وترتب على نسف مستودعات المؤن خفض حصة كل جندي من الطعام ، ففي منطقة لنينغراد حيث ابلى الانصار بلاء حسناً في عمليات النسف والتصدي للقوافل : اقتصر طعام الجنود الالمان على وجبة واحدة في اليوم وذلك طيلة

١ وجهت محكمة نورمبرغ هذا السؤال الى فون مانشتين .

ستة اسابيع .

يضاف إلى ذلك كله اضطرار القيادة الالمانية إلى سحب بضع فرق من الجبهة لتعزيز الوحدات العاملة في المؤخرة ضد الانصار . ويمكننا ان نستشهد هنا بتصريح ادلى به في محكمة نورمبرغ الزعيم هـ . ج . لودندورف معاون رئيس اركان حرب الجيش الالماني الثالث :

« ادى نشاط الانصار البالغ عددهم خمسة عشر الفاً في منطقة اوزاتشي الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بولوتسك إلى تعطيل حركة النقل باتجاه لوبل وذلك عند بيريزنو بارافيانوف حيث يزدوج الخط الحديدي الممتد بين مولودتشنو وبولوتسك . وظل النقل معطلاً على الطريق المذكورة من شتاء ١٩٤٢ حتى ربيع ١٩٤٤ . وجدير بالذكر ان طريق لوبل كانت الطريق الوحيدة المؤدية من الغرب الى قطاعات الجيش الثالث عبر منطقة مكسوة بالاحراج ، كثيرة المستنقعات ، فقيرة بالطرق الثانوية . اما الخط الحديدي وطريق اورشا فيتبسك فقد بات السير عليهما محفوفاً بالمخاطر بعد انتشار العصابات المسلحة على جوانبهما . وعندما شرع الجيش الثالث في شباط ١٩٤٤ في التقهقر ليغدو قريباً نسبياً من قواعد تموينه سبقه الانصار إلى نسف الجسور والمعابر والخطوط

الحديدية ، فاضطر سلاح الطيران الالماني إلى التدخل على نطاق واسع لتنظيف الطرق من العصابات تاركاً الجيش المتقهقر يواجه منفرداً ، ودون غطاء جوي ، الفيالق الحمراء يدعمها طيران خلا له الجو. »

وفي تلك الاثناء كان هتلر يكثر من المناشدات مهيباً بالقوات الالمانية ان تتشبث بمواقعها لانه لم يقدر اهمية الحرب الصغيرة ولم تكن لديه فكرة صحيحة عن نشاط الانصار ومداه .

الفصل الثالث

تنظيم الانصار وتعليمهم

الامر المنشور في ما يلي وضعه مفوضو الشعب في روسيا البيضاء بالاشتراك مع لجنة الحزب المركزية ، وذلك بعد ستة اسابيع من الهجوم الالماني :

« إلى كل اللجان ، لجان المدن ولجان الاقضية ، إلى الحزب الشيوعي ولجانه التنفيذية في الريف ، والمدن ، والأقضية ، وإلى مجلس العمل .

« الموضوع : تنظيم الدفاع الشعبي (حرب العصابات) :

« يأمر مجلس الشعب في روسيا البيضاء واللجنة المركزية للحزب الشيوعي بالتعبئة الفورية لوحدات الدفاع الشعبي (وحدات الانصار) وذلك لتقوم بمساندة الجيش الاحمر عملاً بمرسوم الرفيق ستالين .

« أ – ممن تتألف وحدات الانصار .

« ١ – تؤلف وحدات الانصار في جميع الاجهزة والمشروعات الحكومية والتعاونية . وتضم كل الرجال والنساء والفتيات القادرين على اداء المهام العائدة إلى الدفاع الشعبي . ويكون افراد وحدات الانصار متطوعين تابعين لمؤسساتنا . وتكون الوحدات وحدات مشاة أو خيالة .

« ٢ – تكون وحدات الانصار متناسبة وطاقة الاقضية والمدن والقرى ، ويكون لكل وحدة قائد يعاونه اركان حرب .

« ٣ – تختار المجالس ذات الاختصاص رؤساء الوحدات من بين ضباط الاحتياط في الجيش الاحمر ، أو من بين الرفاق الذين تشبعوا بالعلوم العسكرية ، أو من بين الرؤساء السياسيين والاشخاص التابعين لمنظمات سياسية الذين برهنوا عن شجاعة وكفاءة واخلاص تام للقضية الاشتراكية .

« ٤ – تقسم وحدات الانصار إلى فصائل وسرايا وحضائر .

« ٥ – تنظم الوحدات على الشكل الآتي :

« – فصائل مسلحة بالبنادق مهمتها القضاء على قوة العدو العراكية .

« – سرايا مسلحة بالرمانات وزجاجات البنزين مهمتها

تدمير المصفحات والطائرات .

« — حضائر خاصة مهمتها العمل وراء خطوط العدو ونسف الخطوط الحديدية والجسور ومستودعات الذخيرة والوقود والمؤن .

« — وحدات مهمتها القيام بعمليات استطلاعية وراء خطوط العدو .

« — وحدات مشاة وخيالة واشارات مهمتها تأمين الاتصال بين وحدات الانصار وقادتها وبين وحدات الجيش الاحمر .

« ب — مهمة الانصار .

« ١ — على وحدات الانصار المؤلفة في المدن وفي الريف ان تكافح الفاشستية الالمانية وان تساعد الجيش الاحمر بجعل نشاطها منسجماً مع عملياته ، وبحمايتها خطوط تموينه ، وتأمينها الاتصال بين مختلف عناصر السكان ، والمدن والمصانع ، ووحدات الاقتصاد التعاوني ، الخ ...

« ٢ — تنظيم العمليات الحربية والقيام بها بالتعاون مع الجيش والمظليين .

« ٣ — انشاء التحصينات ذات الاغراض الدفاعية .

« ٤ — ينبغي للانصار ان يحيطوا بالارض التي يعملون عليها إحاطة تامة . وإذا هاجمهم العدو عليهم ألا يدعوا

شيئاً يقع سليماً بين يديه ، وعليهم من ثم اتلاف مؤنهم ومحزوقاتهم وشبكة مواصلاتهم السلكية واللاسلكية .

« ج — التموين .

« ١ — تكون المشروعات والاجهزة الاقتصادية التعاونية اساس تعبئة الانصار . وعلى المؤسسات المشار اليها ان توفر لهم اللباس والغذاء . وعلى الانصار ان يتدبروا اسلحتهم بوسائلهم الخاصة ، فيأخذوا ما في حوزة السكان من بنادق ورمانات ومسدسات وخناجر وفؤوس ومناجل وزجاجات بنزين .

« ٢ — يجهز الانصار انفسهم بالعربات واجهزة المواصلات السلكية واللاسلكية .

« د — التعليم والتدريب .

« فور تعبئة وحدات الانصار يحدد مهمة كل منها رؤساؤها المباشرون والمفوضون . ويسهر هؤلاء على اتمام التدريب بسرعة (استعمال البندقية والرشاش والرمانة) وعلى تعليم الوحدات مبادىء التكتية الاولية .

« هـ — القيادة .

« تؤلف هيئة اركان خاصة بالانصار قوامها اشخاص ينتمون إلى اللجان التنفيذية ومجالس الشعب في المناطق والاقضية والمدن والقرى . »

هذا هو الامر الذي نظم الحرب الصغيرة في روسيا البيضاء . ولكن الانصار لم يتقيدوا بتفاصيله، وحسناً فعلوا . ونحن لم نثبت التنظيم لقيمته التاريخية وحسب ، بل رغبة منا في التدليل على امكان قيام الحرب الصغيرة على مبدأين مختلفين : ١ – النظام المقيد لحركة المقاومة بتوجيهات معينة ، ٢ – حركة المقاومة المرنة .

وقد اعتمد الانصار الروس في النهاية الحركة المرنة .

وللاحاطة بتنظيم حركة المقاومة السوفياتية يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار النقاط الثلاث الآتية :

أ – كانت جماعات الانصار مؤلفة في معظمها من السكان المحليين الذين قاتلوا في المنطقة نفسها طيلة سني الحرب .

ب – لم يدع ، مبدئياً ، إلى حمل السلاح والانخراط في وحدات الانصار إلا المتطوعون .

ج – لم يتسع نطاق حركة التطوع والتنظيم إلا بعد قيام النزاع المسلح بين المانيا وروسيا .

وغني عن القول ان الجيش يخضع تنظيمه لقواعد محددة واضحة . وإذا كان لكراديسه غالباً جذور محلية فان ابواب الانخراط فيها تظل مفتوحة لقبول « الغرباء » اكمالا للعدد المطلوب . اما المنطقة التي تعسكر فيها الوحدات

ايام السلم فانها لن تكون ميدان المعركة التي ستخوض غمارها . يضاف إلى هذا أو ذاك ان الجيوش ، في الحرب على الاقل ، لا تضم سوى عدد ضئيل من المتطوعين ، وان الملاكات منظمة في السلم ، فاذا اشتعلت نيران الحرب تولى كبار المسؤولين في الدولة والجيش تحديد عددها .

من اجل ذلك كله لم يكن من الحكمة في شيء تنظيم وحدات الانصار كما لو كانت وحدات نظامية . فقد تبدلت الوحدات عدداً واهمية وقوة تبعاً لتبدل الظروف المكانية . اما الانضباط والتبعية (تبعية الأدنى للاعلى) فقد أذعن لهما الانصار بملء رضاهم واختيارهم ولم تفرضهما الأنظمة الصارمة .

وثمة نقاط اخرى لا بد من اخذها بعين الاعتبار ، ففي الميدان لا يختار الجيش دائماً ساحة المعركة ، اما الانصار فيعود اليهم اختيار المكان والزمان . وإذا كانت القاعدة هي ان يقيم الجيش النظامي جبهة متماسكة . فالقاعدة في الحرب الصغيرة هي ان يعمل الانصار جماعات متفرقة ، وهكذا لا يكون للجهاز التعاوني ، في الحرب الصغيرة ، الاهمية التي له في الحرب . فاذا اخفقت محاولة عصابة من عصابات الانصار تحملت وحدها عواقب

الاخفاق ، ويكون الأمر عكس ذلك في الجيش النظامي .

ولا يحتاج الانصار إلى اجهزة تموين تتعاون تعاوناً وثيقاً مع المؤخرات ، كما هي عليه الحال في الجيش النظامي لأنهم يتمتعون باستقلال ذاتي واسع ، ويفرض فيهم تأمين مؤنهم بوسائلهم الخاصة . اما سلاحهم فلا يحتاج إلى وسائط نقل تحمله أو تجرّه : انه سلاح خفيف يأخذونه من السكان أو يغنمونه من العدو .

من هنا يتضح ان الحرب الصغيرة لا تخضع لقواعد ثابتة ، وقد ادرك السوفيات هذه الحقيقة واهتدوا بهديها .

*

العصابة هي صغرى الوحدات العضوية في جيش الانصار .

وقد زعم الجنرال بونومارنكو ان عدد العصابات والشراذم بلغ مئات الالوف وكانت تضم رجالاً ونساء واولاداً من الجنسين . وقد اعطى اول تقرير الماني عن حرب العصابات في القرم التفاصيل الآتية :

« قلائل هم افراد الجيش الاحمر في وحدات الأنصار ، واكثر هؤلاء من الشيوعيين المتعصبين اختارهم الرؤساء ودربوهم قبل نشوب الحرب . ويمكن القول ان رؤساء العصابات هم على العموم شيوعيون يحتلون مراكز مرموقة

في الحياة المدنية . ويغلب على الظن ان البوليس السياسي في القرم هو الذي اختارهم لأن المراكز الحساسة لا تسند إلا للشيوعيين مئة بالمئة . يدل على ذلك انتحار جميع الرؤساء الذين طوقناهم مع وحداتهم مؤثرين الموت على الوقوع في الاسر . »

في اواخر تشرين الثاني ١٩٤١ قدرت دوائر الإستخبارات الالمانية عدد الانصار في القرم بثمانية آلاف ، ووصفتهم بانهم يشكلون وحدات مقاتلة من الطراز الأول . ذلك ان انصار القرم تلقوا تدريبهم على ايدي مواطنيهم الذين خاضوا غمرات المعارك في صفوف العصابات عام ١٩١٧ .

وجدير بالذكر ان السوفيات اعتمدوا قواعد مختلفة في اعداد الحرب الصغيرة ، آخذين بعين الاعتبار الظروف المكانية . . ففي اوكرانيا والقرم كان للحرب الصغيرة تقاليدها الموروثة من ثورة ١٩١٧ ، فلما اجتاح الالمان القرم اصطدموا بالانصار في الامكنة التي قاتل فيها هؤلاء لاربعة وعشرين عاماً مضت . اما في المناطق الاخرى فقد خضع إعداد الحرب الصغيرة لتدابير خاصة ، واشرف على تدريب السكان ضباط رافقوا تطورات الحزب الصغيرة في الصين .

وقد جاء في اعتراف ادلى به احد الانصار الروس

ممن وقعوا في الاسر ما يستدل منه على ان السوفيات باشروا تدريب السكان على الحرب الصغيرة قبل قيام النزاع بستة اشهر ، قال الاسير :

« في كانون الثاني ١٩٤١ كنت اعمل في جريدة « النجم الاحمر » لسان حال الجيش الروسي ، وكانت مهمتي التقاط اذاعات الجيش . وقد اطلعت بحكم مهمتي على الاستعدادات الحربية الجارية ، ومنها مناورات واسعة النطاق لوحدات الانصار في منطقة موسكو والجمهوريات الواقعة إلى الغرب منها . »

وفي بعض الحالات كانت افواج التدمير والنسف التابعة للجيش النظامي تستحيل آلياً وحدات تابعة لجيش الانصار . وافواج التدمير والنسف تألفت قبيل نشوب الحرب من العمال والفلاحين الذين دربوا على ايدي مهندسي الجيش ، على ان يعملوا في صفوف القوات النظامية ما دامت هذه تعمل في المنطقة التي ينتمون اليها . فاذا اضطرت القوات النظامية للتقهقر تولت افواج التدمير والنسف نسف الجسور واتلاف الزرع والضرع . وبعد انتهاء هذه العملية تنضم إلى وحدات الانصار ، ويعهد اليها في الغالب تطويق المظليين ومهاجمة العناصر الالمانية المنعزلة .

وكان على رأس كل فوج مؤلف من سريتين ضباط

تظاميون . اما عدد الجنود فيراوح بين ٤٥٠ و ٥٠٠ ، سلاحهم كله من النوع الخفيف باستثناء مدافع الهاون . وقد قدر الالمان ، في اواخر ١٩٤١ ، افواج التدمير والنسف في شبه جزيرة القرم بثلاثة وثلاثين فوجاً . وكان يقودهم لواء تعاونه اركان عامة قوامها هيئة ارتباط وبضعة مفوضين سياسيين . وبعد اشهر اندمج اكثر الافواج في وحدات الانصار أو استحال نواة لوحدات جديدة .

وقبل انصرام عام ١٩٤١ نشأ نوع من التراتب الجديد إلى جانب تقسيم الوحدات وتحديد عدد كل واحدة منها . بيد ان هذا التنظيم لم يكن شاملاً ، وانما اقتصر على الوحدات التي قضت ظروف خاصة باعادة النظر في تقسيمها . فقد رأينا مدناً كسيباستوبول ومنسك تنشيء بنفسها فصائل الانصار والسرايا الاقليمية وحتى مراكز القيادة الاقليمية . وفي القرم وجد في وقت ما خمسة مراكز قيادة اقليمية دفعة واحدة . وفي بعض المناطق الفت الفصائل فصائل فرعية ووحدات عمالية مساعدة .

ومن الوحدات الصغرى ، اي الفصائل الريفية وافواج التدمير والنسف وفصائل المدن ، تألفت القوات المسلحة . اما المستوى العالي فقد تألف من مراكز القيادة وهيئات

الاركان . وكانت هذه تنظم في الاقضية مراكز اطلق عليها « مراكز قيادة العمليات » ومهمتها تنفيذ العمليات المشتركة بين عدد كبير من الفصائل . وفي بعض الحالات كانت هيئات الاركان تعهد إلى فصائل منفردة بتنفيذ العمليات . وكان على كل فصيلة ان ترفع اليها تقريراً عن نشاطها ، كما كان عليها ان ترفع إلى تلك الهيئات تصميم كل عملية يمكن ان تهم الفصائل المجاورة .

ولم تكن القوات تتلقى الاوامر من اركان الحرب وحسب ، بل من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وحتى من الجيش الاحمر كما سيتبين معنا .

وهذا التراتب المطاط يدل بوضوح على مدى مرونة الملاك العضوي ، وهي مرونة لا يرتاح اليها الجيش النظامي . اما عصابات الانصار فقد اعطت بها افضل النتائج . ومجرد القول ان الجيش والحزب واركان حرب المنطقة والقضاء كانت تملك حق اصدار الاوامر إلى الانصار ، يفترض ان وحدات الانصار كانت خاضعة لسلطات عدة تتصرف بها — اي بالوحدات — كما تشاء .

وكان هناك هيئات اركان حرب اعلى مرتبة مهمتها وضع الخطط والتصاميم . اما المقر العام للانصار (هيئة الاركان المركزية) فقد كان في موسكو وعلى رأسه

الجنرال بونومارنكو [1] .

وقد نشطت في مناطق عدة جماعات مسلحة مستقلة عن قيادة الانصار . وقيل في تعليل هذا الاستقلال ان تلك الجماعات نشطت بعد تشكيل الوحدات وفور انتقال الجيش الاحمر إلى الهجوم لتسهل امامه سبل التقدم واجلاء العدو المحتل . وظهر في اقصى الجنوب واقصى الشمال رماة احرار لا ينتمون إلى جماعة مسلحة أو إلى وحدة من وحدات الانصار . كان هؤلاء يعملون لحسابهم ، ولا يؤدون حساباً لاحد . وفي القطاعات الوسطى كان فريق من السكان يقوم بالعمل اليومي المعتاد ، وعند هبوط الظلام يقوم بعمليات النسف والاغتيال بالاستقلال التام عن الانصار وقيادتهم .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الرتب العسكرية لم يكن لها شأن في النظام التراتبي في صفوف الانصار الحمر . فرئيس المنطقة الرابعة في القرم كان فريقاً في حين كان رئيسه ، اي قائد الانصار في شبه الجزيرة ، برتبة عقيد . ورأينا فصيلة من الانصار تعمل بقيادة زعيم ومجموعة

١ راجع ما كتبه بهذا الصدد القومندان شايفر Schaeffer بعنوان « حرب ضد العصابات » في العدد ١٦٧ من جريدة « هامبورجر فريمدمبلات » الصادر بتاريخ ١٩ جزيران ١٩٤٣ .

افواج تعمل بقيادة ملازم اول .

لا جدال في أهمية التراتب وحق الاولية في الجيش النظامي ، ولكن لا جدال كذلك في ضرورة كون النظام التراتبي مرناً في حركة المقاومة الشعبية . ففي الحرب الصغيرة التي شنها الروس استعيض عن تابعية المرؤوس للرئيس بتضامن جميع الذين حملوا السلاح تلبية لنداء الرفيق ستالين ، على ان يؤخذ بعين الاعتبار التسلسل التراتبي المشروح في الصفحة المقابلة :

كان الحزب الشيوعي عاملاً فعالاً في انشاء هذا التسلسل ، لانه هو الذي اخذ على عاتقه حركة المقاومة الشعبية ، وذلك على النحو الآتي :

١ — ما ان قررت السلطات السوفياتية تشكيل عصابات الانصار حتى توجه الحزب بنداء إلى السكان لتأليف الجماعات المسلحة .

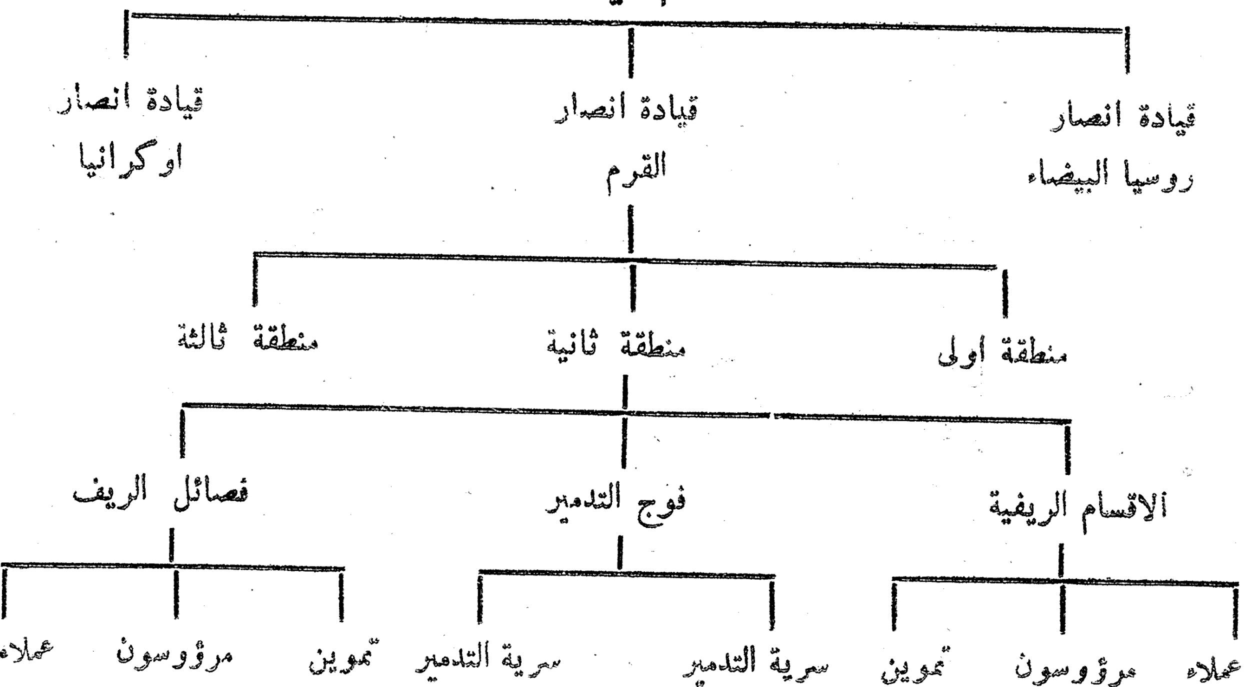
٢ — كان الحزب يسمي رؤساء الانصار الاعلين ، ورؤساء الوحدات المتوسطة ورؤساء الفصائل .

٣ — كان الحزب ممثلاً لدى الفصائل كافة بمفوضين سياسيين واعضاء في لجان الحزب المحلية .

٤ — كان الحزب الشيوعي يدير العمليات :

وقد ذكر م . ا . غريتسوك في التوطئة التي قدم بها

المقر العام في موسكو



لـ « مجموعة » الجنرال بونومارنكو انه كان للانصار « صلة وثيقة بالمنظمات السرية التابعة للحزب » . وقد المـــــح بونومارنكو نفسه إلى هذه الصلة . ولكن يبدو ان الرجلين تجنبا الافصاح عمداً . مع اننا وقعنا على وثائق تثبـــت اهمية الدور الذي مثله البوليس السياسي واستخبارات الحزب الشيوعي في تجهيز وحدات الانصار بالملاكات وفي اختيار رؤساء الوحدات . فقد كانت لجان الحزب هي التي تسمي رؤساء الانصار بعد ان تكون قد اختارت هؤلاء . وفي معظم الحالات كانت القيادة وقفاً على سكرتيرية لجنة الحزب المحلية أو على رئيس اللجنة التنفيذية في المدينة أو المحلة أو القرية . وكانت المنظمات الحزبية تحاط علماً باماكن وجود العصابات لتظل على اتصال بها بواسطة اعضاء الحزب الذين يقع عليهم الاختيار للقيام بمهمة ضبـــاط الارتباط . فاللجان المحلية كانت إذاً تشرف على تجنيـــد الانصار ثم تسعى لابقائهم تحت اشرافها بواسطة ضبـاط الارتباط الحزبيين ، مع العلم ان رئيس اركان الوحدات يجب ان يكون عضواً في لجنة الحزب الاقليمية . يضاف إلى ذلك كون لجان الحزب المحلية مسؤولة عن توفير السلاح والغذاء والاجهزة اللاقطة والمرسلة التي تحتـاج اليها العصابات ، تعاونها في ذلك الشبيبة الشيوعية التي قدمت

لحركة المقاومة ألوف الجواسيس والعملاء .

أما وقد تكلمنا على دور الحزب في مراتبه الدنيا والمتوسطة . فلنتكلم الآن عن دور لجان الحزب العليا :

أ — كان سكرتير الحزب يدير العمليات التي يضع مخططها المقر العام في موسكو .

ب — كانت اللجان المركزية الاقليمية ترسم خطط العمليات وترسل التعليمات بشأنها إلى الوحدات ذات العلاقة . فقد قال لنا الجنرال كوفباك : « امرتنا اللجنة المركزية للحزب في اوكرانيا بالانتقال إلى جبال الكاربات ونسف آبار البترول في دروغوبتش . »

ولتوثيق الصلة بين الحزب والانصار كان هؤلاء يدعون إلى اداء القسم الآتي : « سأبقى ما حييت مخلصاً لبلادي وللحزب ولرئيسي الرفيق ستالين » . وقد تعهد المفوضون السياسيون ومعاونوهم (بوليتروك Politruks) تنمية الوشائج السياسية بين الانصار والحزب . وقبل ظهور حركة المقاومة الشعبية كان المفوضون السياسيون يعملون في صفوف الجيش كعملاء للحزب : يراقبون انضباطية العسكريين ، وينشرون في اوساطهم التعاليم الشيوعية والعقيدة السياسية . ولم تكن وحدة عسكرية ، صغيرة أو كبيرة ، تخلو من

عيون الحزب وآذانه . وكان المفوض السياسي برتبة ضابط ، وله شارات خاصة مميزة تختلف عن الشارات العسكرية .

أما معاونو المفوضين السياسيين فقد كانت لهم رتبة صف ضابط دون ان يكون هؤلاء واولئك مرؤوسين للعسكريين الفعليين ، إنما كان لهم نظامهم التراتبي الخاص . وقد اعتبرتهم السلطات السوفياتية من المناضلين الاقوياء الشكيمة لأنهم اثبتوا بالفعل ولاءهم للدولة واخلاصهم لقضيتها .

وحتى عندما كان المفوضون السياسيون ومعاونوهم ملحقين بالجيش النظامي ، تولى فريق منهم قيادة افواج النسف والتدمير . ويستدل من التقارير العسكرية الالمانية على ان عدد المفوضين في وحدات الانصار كان كبيراً جداً ، حتى الحضيرة كان لديها مفوض سياسي ومعاون مفوض [1] . ولعل هذا ما شجع الجنرال بونومارنكو على وصف حركة المقاومة بانها « حركة نامية سياسياً » .

كان الحزب الشيوعي إذاً يدير حركة المقاومة الشعبية

١ كان لدى شرذمة الفدائيين التي عرفت باسم رئيسها ايليا كوزين مفوض سياسي ومعاون مفوض .

ويعرف دقائقها ويوجه نشاطها . فالحزب يقدم للحركة الرؤساء والعقيدة والعون المادي . وكان هو وراء ازكاء الحماسة في صدور الانصار الذين برهنوا عن تعلق بالثورة ومبادئها لا يقل عن تعلق فلاسفة الحزب وزعمائه بها . وقد وجد الفلاحون والعمال ، الذين حملوا السلاح تلبية لنداء ستالين ، في ممثلي الحزب لديهم — عنينا المفوضين السياسيين — مثالاً يحتذى في نكران الذات .

يتضح من ذلك كله ان حركة الانصار الروس كانت على العموم منظمة تابعة للحزب الشيوعي . فاذا نشبت غداً حرب بين الاتحاد السوفياتي أو الصين ودولة ما ، فستكون مهمة الحزب الشيوعي في هذه الدولة تشكيل وحدات مسلحة تقاتل جيش بلادها ، تنفيذاً لتعليمات الكرملن والشيوعية الدولية .

هذه نقطة تستحق من الدول غير الشيوعية انعام نظر . فمحاولة الحزب الشيوعي ادارة حركات المقاومة في البلدان المحتلة لم تكن محاولة اعتباطية . وإذا عدنا إلى حركة المقاومة الشعبية في الصين نجد في اقوال نفر من زعماء الحركة وقادتها ما يعني اشياء كثيرة تدعو إلى التأمل . فقد صرح بنغ ته هواي لادغار سنو بقوله : « لن يكتب النجاح لحركة الانصار في الصين ما لم يتولَّ الحزب الشيوعي

إدارة هذه الحركة ، لأن الحزب هو الجهاز الوحيد الذي يريد تحقيق اماني الفلاحين ، ويستطيع تحقيقها بفضل الدعاوة التي ينشرها في اوساطهم وبفضل تصميمه على تحقيق ما يصبو اليه الفلاح [1] . »

وقال ماو تسي تونغ : « ... هذا النضال الثوري الطويل النفس لا يمكن ان يقوم به إلا الانصار الفلاحون باشراف الحزب الشيوعي الصيني » . فاذا استبدلنا من لفظة « الفلاح » لفظة « البروليتير » (الشغيل) نجدنا حيال صيغة شيوعية تنطبق على البلدان الصناعية في الغرب . »

لنعد الآن إلى حركة الانصار السوفياتية .

لقد كان البوليس السياسي السوفياتي N.K.V.D ممثلاً في الحركة تمثيلا كافياً ، وكثير من افراد ذاك البوليس قاتلوا في صفوف الانصار . وتحدثت التقارير العسكرية الالمانية عن الدور الذي مثله البوليس السياسي في حقل التجسس وجمع المعلومات وادارة نشاط العملاء في المناطق المحتلة ووراء الخطوط الالمانية . واعترفت تلك التقارير بان النشاط الواسع كانت غايته تسهيل مهمة الانصار وتمهيد

١ Edgar Snow , Red Star Over China , Londres 1937 , p. 284.

السبل امامهم .

*

كان عدد الانصار متفاوتاً في الوحدات ، نجده في وحدة الف رجل ، وفي اخرى خمسين ، واحياناً ٢٥ أو ١٥. فقد كان العدد رهناً بالظروف المحلية . وفي بعض الحالات كانت الوحدات الصغرى تندمج لتؤلف وحدة كبيرة ، أو ينفرط عقد الوحدة الكبيرة لتعمل وحدات صغيرة مبعثرة . وبعض الوحدات الكبيرة كانت تتألف من اربع سرايا ومن قسم يضم عناصر الاستطلاع الآلية وقسم يضم المتزلجين ، فضلاً عن قسم الدعاوة . واسر الألمان عصابات مجهزة بالمدفعية الثقيلة والدبابات . وبفضل مرونة هذا التكوين كان الانصار يعملون بسرعة خاطفة ويتوارون بسهولة ويسر عن انظار العدو .

وكان بعض العصابات يضم افراداً تجمعهم وحدة الحرفة ، فقد اسر الالمان وحدة ستون بالمئة من افرادها كانوا قبل الحرب يعملون على الخطوط الحديدية ، وتبين ان مهمتهم في حركة المقاومة كانت مقصورة على اخراج الخطوط من اماكنها . واسر الالمان وحدة اخرى افرادها جميعاً عمال آلانيون ، وتبين ان مهمتهم هي صنع القنابل الموقوتة .

ويغدو احد الروس ، بمجرد انخراطه في حركة الانصار ،

مرتبطاً بالحركة إلى النهاية ، والويل له إن هو انفصل عنها ، فالفراريون يعدمون بعد محاكمة صورية . وقد اشتمل قَسم الانصار على النص الآتي : « إذا لم اقم بما اقسمت على القيام به ، بدافع من ضعف أو تخاذل أو سوء نية . فأستحق عقوبة الاعدام ويتولى رفاقي تنفيذ العقوبة بي . »

كان في عداد العصابات مجموعتان تعملان تارةً مستقلتين وطوراً في نطاق حركة الانصار : مجموعة التموين ، ومجموعة العملاء .

فوحدات التموين التي انشئت في مطلع ١٩٤٣ كانت مهمتها تحرير الانصار من كل عبء لا علاقة مباشرة له بالعمليات . ويبدو انها كانت تتلقى التوجيه من « جمعية المتطوعين لابادة الفاشستيين » . أما الاعمال الموكول اليها القيام بها فهي الآتية :

١ ـ تحريض الشعب على الالمان .

٢ ـ تجنيد افراد جدد والحاقهم بالانصار وبجمعية المتطوعين لابادة الفاشستيين .

٣ ـ تأمين نقل الانصار الجدد إلى حيث تعمل وحداتهم .

٤ ـ تأمين وسائط النقل اللازمة لتحقيق ذلك الغرض .

٥ – تجهيز الانصار ببطاقات هوية زائفة .

٦ – افساد المحاولات التي يبذلها الالمان لاتلاف المحاصيل والزرع والضرع قبل وصول الجيش الاحمر .

يمكن القول ان عدداً محدوداً من العصابات الرئيسة افاد من نشاط وحدات التموين . ذلك ان الانصار على العموم كانوا يقيمون في اماكن عزيزة المنال ، ويكرهون ان يهتدي احد إلى مخابئهم ، لانه وجد في صفوف الروس افراد ضالعون مع العدو المحتل .

أما العملاء ، ولنسمهم الجواسيس ، فقد كانت وحداتهم اعظم شأناً . وكان لكل عصابة جواسيسها ومخبروها ، يعملون لحسابها بل لمصلحتها مع مثابرتهم على عملهم اليومي في المدن والقرى . اما مهمة العملاء فهي نقل الاخبار إلى العصابات ، وموافاتها بكل ما تهمها معرفته من احوال العدو وتحركاته واستعداداته . وكان في صفوف العملاء نساء وفتيات يعملن كخادمات أو كغسالات ، فطلب اليهن الاتصال بالضباط الالمان وضباط الصف واستلال المعلومات المفيدة منهم . وعمل لحساب الانصار الاطباء والممرضون الذين صادرهم الالمان والحقوهم بخدمة المستشفيات العسكرية ، بل عمل لحسابهم المتسولون الذين كانوا يرودون حول المنشآت العسكرية الالمانية ، والاولاد الذين كانوا يقومون

بخدمات معينة لدى المحتلين . اما اتصال هذه الفئات وتلك بالانصار فقد كان يتم بواسطة عملاء ارتباط يتمتعون بثقة العصابات [1]

وكان عملاء الارتباط والعملاء يتعارفون بواسطة كلمة السر . وفي بعض المناطق انشأ العملاء وكالات اخبارية . ففي مدينة لوسوايا كان مركز الوكالة احد المستشفيات . وفي خركوف كان مركزهـا في منزل اشتهر باسم « بيت العمة ليز » . وكان كبير الجراحين في مستشفى لوسوايا جاسوساً خطيراً توصل إلى كسب ثقة قادة البوليس الالماني وكبار العسكريين . وبعد توقيفه وجد من يتدخل لمصلحته في صفوف الضباط الالمان .

وكانت العصابات تتولى بنفسها اختيار عملائها او تنوط هذه المهمة بمنظمات الحزب الشيوعي السرية . وفي بعض المناطق كان العميل يوقع على مستند يتعهد فيه بان يكون مخلصاً وان يقوم بواجبه على اكمل وجه . وتقول تقارير المانية ان تعبئة الانصار كانت تحصل في ابان الحرب بطرق ليس بينها وبين الاكراه فرق كبير . بيد ان النجاحات التي سجلتها العصابات قد اغرى الفلاحين والعمال بالانضمام

١ من يوميات الجنرال كوفباك ، ص ٢٣ .

إلى الانصار كمتطوعين . وقد وصف تقرير الماني طريقة التجنيد في منطقة سابورويي على النحو الآتي :

« اكتشف رجال مكافحة الجاسوسية في سابورويي مكتباً لتجنيد الانصار في حي صغير مساكنه متلاصقة وشوارعه ضيقة . وقد فاجأ رجالنا مدنيين لم تشملهم تدابير الاجلاء يجلسون القرفصاء حول خمسة من رجال العصابات . وعلى الاثر طوّقت قوات الشرطة العسكرية الوكر واعتقلت الذين كانوا في داخله ، فتبين ان بينهم خمسة اشقياء و ٢٣ مجنداً . واعترف هؤلاء بان الاشقياء الخمسة ابلغوهم وجوب الالتحاق بقيادة انصار سابورويي في غضون خمسة ايام ، وان على كل واحد منهم ان يتدبر سلاحه بوسائله الخاصة . »

أما تدريب المجندين على استعمال السلاح واعمال النسف والتدمير فقد كانت تقوم به العصابات نفسها أو تكل هذه المهمة إلى لجان الحزب الاقليمية . وفي بعض المناطق كانت اللجان تفتح دورات تعليمية قصيرة الامد لتخريج المخربين. وكان في موسكو وستالينغراد ولنينغراد مدارس لتخريج الانصار عموماً وارباب الاختصاص خصوصاً . أما مدة الدراسة فستة اسابيع . أما المنهج فيشتمل على ما يأتي :

١ — درس في نسف الخطوط الحديدية والجسور والطائرات والمطارات بواسطة المتفجرات اليدوية والصواريخ ، الخ ...

٢ — درس في الهبوط بالمظلات .

٣ — درس في كيفية العمل وراء الخطوط الالمانية، والحصول على اوراق هوية المانية ، والاتصال بالعناصر الشيوعية في صفوف العدو ، وكيفية الخروج من المآزق الصعبة .

٤ — درس في قراءة الخرائط .

٥ — درس في عمليات الاستطلاع لحساب الجيش الاحمر .

وكان بعض تلك المدارس يشتمل على فروع لتخريج الجواسيس والاختصاصيين في التقاط المخابرات السلكية واللاسلكية والاشارات التي تعطى من اليابسة للطائرات . وكان البوليس السياسي يدير مدارس مهمتها تخريج الاختصاصيين في سرقة المستندات والتقارير والخرائط وفك الرموز والجفر .

وكان « مُتناول الانصار » **Manuel** يشتمل على تعليمات عامة بشأن ادارة العمليات ، والخدمة في الميدان ، وانشاء الملاجىء ، والتعرف إلى الارض والعمليات التكتية ، فضلاً

عن وصف للاسلحة الروسية والالمانية . وثمة تعليمات كانت تعطى بواسطـة نشرات أو مذكرات مكتوبة ، واحيانـاً بواسطة صحف يصدرها الانصار انفسهم . وقد وقعت بين ايدي الالمان نسخة من جريدة «كراسنايو سويسدا» وكانت تشتمل على التعليمات الآتية :

« إن الجيش الالماني الذي يعتمد على تجهيزه التقني لفي حاجة إلى خطوط مواصلات تربطه بالمؤخرة وتؤمن حصوله بانتظام على الوقود والذخائر والمواد الغذائية وقطع البدل، الخ ... لذلك بات لزاماً على الانصار ان يقوموا بنشاط تخريبي واسع النطـاق على طول طرق التموين المعادية والطرق التي يستخدمها العدو في تقهقره .

« تُنسف الجسور ذات القوائم المعدنية بتفجير الالغام . أما الجسور ذات القوائم الخشبية فيعمد إلى نشر هـذه القوائم وإلى حرق الاجزاء الباقية منها . ومن المرغوب فيه نسف الخطوط الحديدية في المواضع التي يصعب إصـلاح ما يطرأ عليها من خلل ، كالاجزاء المنحنية ، والخطوط المتشابكة ، والممرات الضيقة .

« لمنع التقاط الالغام وتعطيلها ينبغي وضع الغام صورية تضليلاً للعدو . ولـكي يعطي تخريب الطرق النتائج المتوخاة ينبغي ان يحصل في اماكن يصعب العمل فيها ، كالطرق

المحاطة بالاشجار ، والخنادق العميقة ، والاماكن الآهلة ، والسفوح الجرداء ، ومفارق الطرق .

« في المدن والقرى تمكن عرقلة السير في الوقت المناسب بنسف المنازل .

« اجدى الطرق لنسف الدبابات والسيارات هي استعمال الالغام المتنقلة ، اي : الالغام التي يكون تحريكها حراً ، وذلك بأن يكمن المواطن في موضع ويمد من مخبئه حبلاً رفيعاً ربطت اليه الغام ، إلى الطريق بحيث تظل الالغام على القسم غير المعبد ، حتى إذا اقبلت دبابة جذب الحبل ، فتمر الدبابة على لغم أو أكثر فينفجر تحتها . »

هذا اهم ما اشتملت عليه الجريدة من تعليمات موجهة إلى الانصار . وقد نظم الراديو السوفياتي منهجاً خاصاً دعي « ركن الانصار » ، فكان المذيعون يتوجهون إلى العصابات مرتين في اليوم بارشادات وتعليمات منها الواضح ومنها المبطن . وكان ركن الانصار يذيع احياناً اخباراً عن نشاط العصابات في حقل ارهاق العدو والقضاء على التعاونيين من الروس .

وقد التقطت مصلحة ضبط الاذاعات التابعة لدوائر الاستخبارات في الجيش الالماني الاذاعة التالية في اثناء توجيهها إلى الانصار (وجدتها القوات الحليفة مسجلة في

محفوظات وزارة الدعاية) :

« موضوع حديث اليوم : «كيف تقضي على العسس الالماني ؟ عندما تخرج لصيد الالمان تصور انك ماض إلى صيد الحجل. فالصياد يدنو على مهل من الحجال وهي تشدو ، ويختبىء حالما يبصر بها تتطلع حولها. اعتمدوا الخطة نفسها في الانقضاض على رجال العسس الالمان : ادنوا من الخفير يلفكم الظلام الدامس ، شاهرين الفؤوس أو الخناجر ، فاذا شعرتم بانه يتمشى او انه يحاول تبين ما حوله بنظرات فاحصة ، فتوقفوا. اما إذا رأيتموه مستغرقاً في التفكير فامشوا اليه على مهل واضربوه بالفأس على رأسه ضربة شديدة . »

*

كان الانصار يختبئون في اماكن يصعب الوصول اليها كالمناجم والاحراج والجبال والمستنقعات . ومن حق المراقب ان يتساءل : كيف كان الانصار يعيشون في المستنقعات وينطلقون منها لشن هجماتهم الخاطفة ليعودوا اليها بعد انتهاء العمليات ؟ في صيف ١٩٤٣ تحدث الجنرال ديتمار كبير المذيعين في راديو برلين عن هذه النقطة بالذات، قال :

« يعتقد المستمعون ولا ريب ان المستنقعات في روسيا

بقاع لا يمكن ان يبلغها انسان . ولكن الواقع هو غير ذلك ... فمنذ ايام اعترض مستنقع سير احدى قوافلنا ، فترجل الجنود وراحوا يسبرون غور المستنقع ، فتبين لهم انه غير عميق في بعض الاماكن ، وان الانسان لا يغرق في الوحل إلى اعلى من الركبتين . وحيال هذه الظاهرة امر قائد القافلة بدرس حالة المستنقع درساً دقيقاً ، فتبين ان العصابات انشأت تحت الماء طريقاً من الالواح الخشبية المتماسكة ، وان الطريق يؤدي إلى جزيرة صغيرة قائمة في وسط المستنقع اتخذ منها الانصار مخبأ ومنطلقاً . »

ووصف تقرير الماني مخبأ جبلياً للانصار على النحو الآتي :

« هو مخبأ لا يمكن الوصول اليه بالهبوط من قمة الجبل ، لأن الانحدار شديد ؛ ولا يمكن الوصول اليه بتسلق السفح ، لأن مدخل الممر يحرسه بضعة عشر رجلاً أقاموا متاريس وحواجز ليس من السهل تخطيها . والدرب الوحيد المؤدي إلى المخبأ ضيق جداً لا يتسع لمرور رجل بدين . ويحرس جانبي هذا الدرب خفراء مسلحون بالرمانات والرشاشات . وقد احبط الانصار سلسلة محاولات قامت بها قواتنا الجبلية لبلوغ المخبأ وإبادة من فيه . فلجأنا أخيراً إلى السلاح الجوي ، واستطاعت قنابل الطائرات

تدمير مراكز الرصد ، ولكنها لم تتوصل إلى نسف وكسر العصابات . »

أما معسكرات الانصار في المناطق الحرجية فقد كانت تتألف من اكواخ خشبية ، مثبتة بالارض ومنتشرة بشكل مثلث يتيح لها ان تتبادل المعونة عند الاقتضاء . وكان للمعسكرات الكبيرة مبانٍ خشبية بعضها معدّ لاستقبال الجرحى والعناية بهم ، وبعضها الآخر معد لخزن المؤن والذخائر . وكانت الطرق والدروب المؤدية إلى المعسكرات ملغومة ومموهة ، فاذا كان الطريق متفرعاً عن طريق عام اجتهد الانصار في تغطية مدخله بالاغصان بحيث لا يكتشفه الالمان عند اجتيازهم الطريق العام .

وجرت العادة على خروج الانصار من مخابئهم ليلاً ، وعلى سلوكهم طرقاً ودروباً لا يعرفها غير ابناء المنطقة من رجال العصابات ، يتقدمهم الكشافون وعناصر الطليعة ، ويسير وراءهم حرس المؤخرة . وغالباً ما كانت الخيل المتعبة تترك في القرى التي يمر بها الانصار وتستبدل من خيل يقدمها الاهلون . وكان معدل السير الليلي يراوح بين ٤٠ و ٦٠ كيلومتراً .

*

من المسائل المرتبطة بتنظيم العصابات الأشارات أو المخابرات ، والتموين ، والتعاون مع الجيش الاحمر .

في مستهل الحركة كان الجواسيس والعملاء يتسقطون الاخبار وينقلونها إلى عناصر الارتباط ، فتحملها هذه إلى العصابات . وسرعان ما تبين ان هذا النظام لا يصلح لغير جمع الاخبار ذات الطابع المحلي المحدود ولغير نقلها إلى من يهمهم الامر . واتضح ضعف الجهاز عندما اضطرت طبيعة الحوادث بعض العصابات إلى الابتعاد عن قواعدها وتعذر على عناصر الارتباط اللحاق بها : وكانت عصابات القرم السابقة إلى تطوير نظام المخابرات وتحسينه ، إذ استعملت الهاتف في مخابراتها ، ثم استعملت الراديو للاتصال مع عملائها وراء خطوط العدو . وقد اورد تقرير الماني حادث اكتشاف جهاز مرسل ولاقط ، على النحو الآتي :

« عهدت قيادة احدى الوحدات الالمانية ، التابعة لدوائر مكافحة التجسس ، إلى رجالها بالبحث عن محطة سرية نشيطة في قطاع « شاني » . وبعد تحريات استغرقت اسبوعاً طوقت الوحدة قرية روتليتن لان الخبراء جزموا بوجود المحطة السرية فيها أو في ضواحيها . وقد فتش جنودنا المساكن والاكواخ تفتيشاً دقيقاً . واخيراً وصلوا إلى بيت

صغير منعزل ، تقطنه امرأة وابنتها البالغة من العمر سبعة عشر عاماً ، فأنكرت المرأتان ان يكون لهما علم بوجود المحطة ، ولدى تفتيشهما عثر رجالنا مع الفتاة على ادوات كالتي يستعملها هواة الراديو . وعلى الاثر تحرت الوحدة الالمانية البيت فوجدت الجهاز السري في قبو معد لخزن العلف ، وقد موه تمويهاً بارعاً . »

وعلاوة على المحطات الثابتة استعمل الانصار محطات نقّالة . وكانت الطائرات الروسية تُنزل في المناطق المحتلة جواسيس مكلفين اداء مهام معينة ، وكان هؤلاء مجهزين بمحطات ارسال ، يستعملها من كان منهم مدرباً على استعمالها ، فيتصل يومياً بالجهة التي عينتها له السلطة ، وإذا تعذر عليه ذلك كان عليه ان يتصل باقرب مركز للانصار تمكنه مراسلته . وفي اواخر ١٩٤٢ اتمت قيادة الانصار تجهيز وحداتها كافة بمحطات مرسلة ولاقطة :

اما بث الرسائل والمعلومات فقد كان يحصل بواسطة اشارات ورموز خاصة تمكن الالمان من الحصول على بعضها فاستخدموها في اعطاء الانصار معلومات مغلوطة وتعليمات يؤدي العمل بها إلى وقوع العصابات في الشرك . وقد وقع بعضها فيه فعلاً ، ولكن هيئة الاركان العامة

للانصار في موسكو بادرت إلى تغيير الرموز في الوقت المناسب .

ومما لا شك فيه ان حركة المقاومة الشعبية مدينة بالكثير للراديو الذي اتاح للوحدات تبادل المعلومات وبالتالي تبادل المعونة ، كما اتاح للقيادة ادارة العمليات الكبيرة وتوجيه الصغيرة .

وبقدر ما افادت حركة المقاومة من الراديو افادت من السلاح الجوي الذي حل لمصلحتها مسألة بدت للوهلة الاولى معضلة صعبة الحل ، عنينا مسألة تموين الانصار . لقد كان مفروضاً في الانصار ان يتدبروا مؤنهم وذخائرهم بالاغارات الخاطفة على مستودعات العدو ومخازنه . أما إذا وجدوا انفسهم حيال وحدات كبيرة من الجيش الالماني مستكملة التجهيز ، متأهبة للعمل ، فان مصادر تموينهم الوحيدة تكون المناطق المحتلة ، لانه يستحيل عليهم التسلل إلى حيث تقوم المستودعات والمخازن . واذا استطاعوا التسلل تعذر عليهم العود بالاسلاب إلى النقاط التي انطلقوا منها إلا إذا مشى الحظ في ركابهم من بداية الشوط إلى منتهاه .

ومن حسن حظ حركة المقاومة الشعبية في روسيا السوفياتية ان الانصار دخلوا الميدان وفي حوزتهم كميات هائلة من العتاد والذخيرة . وقد احزروا هذه الكميات

خلال الاسابيع الاولى من الحرب لأن الجيش الاحمر تخلى ، في تقهقره السريع امام الزحف الالماني ، عن الكثير من سلاحه وعتاده لافواج النسف والتدمير التي خلفها وراءه ، وعندما اندمجت تلك الافواج في حركة المقاومة بعد انتهاء مهمتها ، حملت إلى الحركة سلاحها واعتدتها .

ويحسن بكل بلد يفكر باللجوء إلى الحرب الصغيرة ان يفيد من الامثولة الروسية :

ينبغي انشاء ملاكات الانصار قبل تقهقر الجيش النظامي امام ضغط العدو ، ليتسنى للحركة الشعبية ان تضع يدها على ما يخلف الجيش وراءه من اسلحة وذخائر ومواد غذائية مؤمنةً بذلك حاجاتها الاولية ، لان السلاح الجوي، الذي يموّن العصابات وهي في ابان نشاطها ، يكشف مواقعها للعدو وهي بعد غير متأهبة للعمل وغير مالكة الوسائل الكافية للدفاع عن نفسها .

*

سبق وذكرنا شيئاً عن اسلحة الانصار العادية . ونقول هنا ان حركة المقاومة الشعبية استعملت انواعاً شتى من الاسلحة . اما سلاحها العادي فقد كان البندقية القصيرة التي عرفت باسم « بندقية الحرب الصغيرة » . وقد

توصلت العصابات ، في وقت ما ، إلى صنع العتاد المعد لاعمال التخريب ، وعملت في بعض المناطق بتوصيات شيانغ بو لي المدعو بحق « ابا الحرب الصغيرة في الصين » . وفي ما يلي ما اوصى به الزعيم الصيني وحدات الانصار في بلاده :

– ضعوا السكر في خزّان البنزين العائد إلى الدبابة أو السيارة او الطائرة ، فيذوب السكر تاركاً في المواسير رواسب الكربون التي لا تلبث ان تعطل وظيفة المواسير ، مع العلم ان العدو لا يستطيع ان يكشف وجود السكر في البنزين ، وإذا هو شعر بوجوده فان شعوره هذا يأتي متأخراً .

– يمكن استخدام الفحم في لغم المنشآت الصناعية ، وذلك بأن يجوّف الانصار قطعة كبيرة من الفحم ويملأوا الفراغ بالمواد المتفجرة ، فاذا دخلت القطعة فرن المصنع باتت الكارثة محتومة .

– من الوسائل الفعالة التي يمكن الانصار اللجوء اليها القنابل الحارقة والمواد الكيماوية المعدة لاشعال النار في مؤن العدو أو جعلها غير صالحة للاستعمال [1] .

١ مقتطفات من كتاب « الحرب في الصين » المجلد الثالث ،

خلال محاكمة الفيلد مارشال فون مانشتين امام المجلس العسكري سئل عن معلوماته بشأن تموين عصابات الأنصار، وكان السائل الجنرال السر فرانك سمبسون :

رئيس المجلس العسكري : هناك سؤال اود ان تجيب عنه اجابة مفصلة وصريحة ، وهو يتعلق بتصريح لك ادليت به صباح اليوم بصدد تنظيم وحدات الانصار . قلت في جلسة الصباح ان مخازن كبيرة قد انشئت لتكون في متناول العصابات عند تأليفها ، وان الانصار كانوا يغذون تلك المخازن بما يغنمونه خلال إغاراتهم الخاطفة على المستودعات الالمانية . فهل يمكنك ان تطلعنا على معلوماتك بشأن اهمية تلك المخازن وطريقة تنظيمها ؟

الفيلد مارشال : لا اذكر اني تحدثت عن مخازن كبيرة ، إنما اشرت إلى وجود عدد كبير من المخازن . وقد وضعنا ايدينا على بضعة مخازن ، فالفيناها ملأى بالذخيرة والمواد الغذائية والمتفجرات .

الرئيس : لا ريب في ان إنشاء مخزن أو مستودع كبير يتطلب وقتاً طويلاً !

الفيلد مارشال : طبعاً . لذلك اراني ميالاً إلى الاعتقاد

(ايلول ١٩٣٩) ، صفحة ٤٣ .

ان الحرب الصغيرة قد هيئت قبل احتلالنا شبه جزيرة القرم ، بل قبل دخولنا شبه الجزيرة ببضعة اشهر .

الرئيس : اشكر لك هذه الايضاحات واعتقد أنها ساعدتني على تكوين فكرة عن الموضوع .

طبعاً لم يكن في وسع القائد الالماني اعطاء معلومات دقيقة عن تلك المستودعات والمخازن . اما غاية رئيس المجلس العسكري من استيضاحه فقد كانت الوقوف على أهمية المواد والاعتدة التي خلفها الجيش الاحمر لحركة المقاومة الشعبية لدى إنسحابه شرقاً . أما الامثولة التي يمكن استخراجها فهي وجوب انشاء المستودعات وتعميمها قبل شن الحرب الصغيرة ، بحيث يجد الانصار في متناولهم كل ما يحتاجون اليه في حملاتهم الاولية .

ويقول الالمان انهم اكتشفوا مستودعات في اقبية المصانع ، وفي المنازل المنعزلة ، والسراديب ، والأحراج ، والمدافن ، وان احدى العصابات كانت تخفي الذخيرة في قبة جرس الكنيسة .

سبق وقلنا ان الانصار كانوا يغيرون على المعسكرات الالمانية لنهب ما تصل اليه ايديهم من مواد غذائية ، ولكن تدابير الحماية التي اتخذها

المحتلون جعلت تلك العمليات محفوفة بالمخاطر ، واضطرت العصابات من ثم لنهب المخازن في القرى غير الواقعة في نطاق نشاطها . فكان الانصار يخرجون ليلاً من مكامنهم فيقتلون المخاتير الذين عينهم العدو المحتل والخفراء ورئيسهم وكل من يتعاون والمحتلين ، ثم يستولون على المواشي والحبوب ، ويوزعون قسماً منها على القرى المتعاونة وإياهم .

وإلى جانب حصيلة الاغارات الخاطفة على القرى ومخازن العدو ، كان الانصار يتسلمون مواد غذائية من المنظمات السرية للحزب الشيوعي ومن جماعات اشتهرت باسم «عصابات التموين» .

وقد تولى الطيران الاحمر نقل العتاد والذخائر والمواد الغذائية ، وكثيراً ما القاها إلى الانصار بواسطة المظلات . وبدأ نشاط الطيران في هذا الحقل في اواخر ربيع ١٩٤٢ ، وتزايد مذ ذاك تبعاً لتزايد نشاط العصابات . ويعترف تقرير الماني بأن الطيران الاحمر استطاع غير مرة إنزال وحدات من الانصار في مناطق كان الالمان قد طهروها من العصابات .

وصلنا الآن إلى الناحية الاهم في تنظيم الحرب الصغيرة ، عنينا تعاون الانصار مع الجيش الاحمر .

لقد اصاب ماو تسي تونغ كبد الحقيقة عندما قال : « الجيش والانصار هما ذراعان لجسد واحد ، فاذا لم يقم تناسق بين حركاتهما تعذر عليهما اتيان اعمال تستحق الذكر . »

قلنا ان ادارة الحرب الصغيرة في روسيا كانت بيد الحزب الشيوعي . أما الجنود النظاميون فقد كانوا يعملون في نطاق الجيش الاحمر . ولكن الجنود الحمر والانصار كانوا خاضعين لاشراف « لجنة الدفاع الوطني » القابضة على زمام الامور في البلاد . وكان ستالين يتولى مفوضية الشعب للدفاع الوطني ورئاسة اللجنة المذكورة . وقد ارتبطت هيئتان مسؤولتان بالمسؤول الاعلى (اي لجنة الدفاع) هما قيادة الانصار في المناطق المحتلة وقيادة الجيش في المناطق غير المحتلة . وهكذا نرى ان الاتصال بين الجيش والانصار كان يتم على مستوى عال ، أما الخطط فقد كانت تضعها هيئة اركان مشتركة .

لم يكن الجيش بحاجة إلى وسيط بينه وبين حركة المقاومة الشعبية ، فقد كانت كل وحدة من وحدات

الانصار (حتى الشرذمة) على اتصال دائم بالاركان العامة للجيش الاحمر وذلك بواسطة الراديو ، فتزودها الاركان بالتعليمات اللازمة . وكانت وحدات الجيش النظامي على اتصال دائم بوحدات الانصار العاملة في قطاعها ، تتبادل وإياها المعلومات وتصدر اليها الاوامر مباشرة . وكانت الاوامر التي يصدرها الجيش إلى العصابات صريحة ، واضحة ، كأن تعين لها ، مثلاً ، النقاط التي ينبغي لها الانتقال اليها ، وترسم لها خطة كاملة للعملية أو العمليات المكلفة القيام بها ، أو كان يعهد اليها الجيش بنسف موقع أو جسر أو مهاجمة سجن . إلا ان الانصار كانوا يؤدون هذه المهام احياناً من تلقائهم .

وليس في المستندات التي وقع عليها الحلفاء ما يجيز القول ان الجيش الاحمر خاض غمرات القتال في سبيل انقاذ الانصار من ورطة ما أو من اجل تغطية انسحابهم أو تسهيلاً لمهمتهم ، مع ان الانصار قد عملوا الكثير في سبيل القوات النظامية . وسبب هذه الحالة واضح ، فحركة المقاومة الشعبية كانت من القوة بحيث تقوى منفردة على اداء المهام المنوطة بها . اما في الحالات التي عمل فيها الأنصار والقوات النظامية جنباً إلى جنب فقد كان التعاون لمصلحة الجيش الاحمر

وحده . ولعل ابرز مثال على التعاون التكتي بين العصابات والقوات النظامية هو ما قامت به هذه في اواخر حزيران عام ١٩٤٤ عندما دارت رحى المعركة الحاسمة في قطاع بوبرويسك فيتبسك .

بدأ الانصار عملياتهم ضد المؤخرات الالمانية قبل ان يشن الجيش الاحمر هجومه مستهدفاً فتح ثغرة واسعة في قلب الجبهة الالمانية . وقد ادى نشاط الانصار إلى إضعاف القطاع الاوسط من الجبهة لان السيطرة الفعلية على معظم القطاعات انتقلت إلى ايديهم . وعندما شنت القوات النظامية هجومها كان الجيش الالماني قد فقد كل وسيلة من وسائل الاتصال بقواعد تموينه . وقبل الهجوم باربع وعشرين ساعة سجل الالمان اذاعة روسية تأمر الانصار بمضاعفة نشاطهم غير آبهين لما يحل بالسكان المدنيين . فشنت العصابات في ذلك اليوم عشرة آلاف اغارة على طرق التموين والمواصلات الهاتفية واللاسلكية ، فسبب نشاطها شللاً عاماً لجهاز القيادة المعادية . ولم تلق الوحدات المصفحة السوفياتية كبير عناء في سحق الجبهة المترنحة والانتشار شمالاً وجنوباً . وقد مني الالمان بخسائر جسيمة خلال تقهقرهم لان كمائن

الانصار كانت منتشرة في كل مكان :

ان الامثلة لكثيرة على العمليات المشتركة بين الانصار والقوات النظامية . وقد كانت عنايتها دائماً تمكين الجيش الاحمر من بلوغ اهدافه الاستراتيجية . فمن هذه الزاوية اذاً ينبغي لنا ان ننظر إلى تعاون حركة المقاومة الشعبية مع القوات النظامية .

ففي رأس اهداف الجيش الاحمر الاستراتيجية كان القضاء على قوى العدو . وكانت مهمة حركة المقاومة الشعبية مساعدة الجيش على بلوغ هذا الهدف بتدخلها ضد المؤخرات المعادية . وقد قام الانصار بمهمتهم تلك على مرحلتين اختلف التعاون في احداهما عنه في الاخرى ان من حيث المدى او من حيث الطابع .

وقد تميزت المرحلة الاولى بتقهقر الجيش الاحمر ؛ أما المرحلة الاخرى فقد تميزت بتثبيت الجبهة اولاً ثم بانتقال الروس إلى الهجوم المضاد . ففي مرحلة التقهقر كان التعاون مطاطاً بين الجيش الاحمر وحركة المقاومة الشعبية . ولم يكن مرد ذلك إلى حداثة عهد العصابات بالعمل وافتقارها إلى اللحمة والعمل المنظم ، إنما كان مرده إلى ندرة المناسبات التي اوجبت

قيام تعاون وثيق بين الانصار والجيش المتقهقر . فقد كان عليهم ان يعرقلوا زحف العدو في كل مكان وبمختلف الوسائل ، والوحدة التي تعمل اليوم وهي على صلة بالجيش تجد نفسها في اليوم التالي وبينها وبينه عشرات الاميال . وفي مثل هذه الحال يغدو التعاون في الميدان مستحيلاً ويقتصر على تبادل المعلومات بواسطة الراديو وغير ذلك من الوسائل .

ولكن الموقف تبدل عندما ثبت الجيش الاحمر جبهته وانتقل إلى الهجوم . ففي الوقت الذي كانت فيه القوات النظامية تتأهب للانقضاض على العدو المحتل ، كانت العصابات تهم بضرب مؤخرات العدو . وخلال الهجوم المضاد ناط الجيش بالعصابات مهام محددة في اماكن عينها لها ، كاستطلاع احوال العدو ، وقطع مواصلاته ، والقيام بعمليات الهاء في الخطوط الامامية ، الخ ... ويمكن القول ان التعاون كان في المرحلة الثانية دقيقاً ومحدوداً .

*

واذاً ، فقد وجدت في روسيا السوفياتية منظمة سرية ، منظمة اجتازت الامتحان بنجاح تام ... فهل كان وجود تلك المنظمة شرعياً ؟

لقد اثيرت هذه المسألة في اثناء محاكمة مجرمي الحرب

الالمان لان المانيا لم تعامل الانصار الذين وقعوا في الاسر المعاملة الخاصة باسرى الحرب ، بل اعتبرتهم عصابات اشقياء واعدمتهم رمياً بالرصاص .

في اثناء محاكمة مجرمي الحرب التقى الاميركيون والانكليز والهولنديون حول المبادىء الاساسية الآتية :

لا تعتبر عمليات الحزب الصغيرة خروجاً على احكام عهدة لاهاي المتعلقة بالحرب البرية . اما إذا تجاهل الانصار تلك الاحكام فانهم يحرمون الحماية التي تكفلها العهدة لاسرى الحرب . فاما ان يكون الأنصار محاربين او لا يكونوا . وفي الحالة الثانية يعتبرون رماة احراراً .

وقد نصت المادة الاولى من عهدة لاهاي على ما يأتي :

« ان تطبيق الشرائع والحقوق والموجبات في زمن الحرب لا يقتصر على الجيوش وحسب ، بل يتعداها إلى الميليشيا ووحدات المتطوعين الذين تتوافر فيهم الشروط الآتية :

« أ — ان يقودهم رئيس مسؤول .

« ب — ان يحملوا شارة يمكن تمييزها من بعيد .

« ج — ان يحملوا السلاح جهاراً .

« د — ان يقوموا بالعمليات وفقاً لشرائع الحرب وتقاليدها .

« فاذا توافرت هذه الشروط في الانصار اعتبروا محاربين وعوملوا على هذا الاساس في حال وقوعهم في الاسر . »

ومن تحصيل الحاصل القول ان الانصار السوفيات لم يتقيدوا باحكام المادة الاولى من عهدة لاهاي ان من حيث حملهم شارات خاصة او من حيث حملهم السلاح جهاراً . وفي اثناء محاكمة مجرمي الحرب شرح الفيلد مارشال فون مانشتين وجهة النظر الالمانية في الموضوع عندما قال : « كنا نحن الالمان حيال حرب ذات طابع خاص ، فالجندي الالماني كان يُعرف بسهولة ، اما رجل العصابات فلم يكن من السهل معرفته لانه يرتدي اللباس المدني . »

أما نظرة الروس إلى الحرب الصغيرة وحق الانصار بحماية عهدة لاهاي لهم فقد عبروا عنهما بقولهم : « لم يكن الانصار إلا محاربين . فمن قال للالمان ان الفلاح القابع في الحقل المزروع قمحاً هو رجل اعزل ، وان القروية التي تحمل سلة البقول لا تخفي في سلتها رمانة يدوية ؟ »

وقد التقى الاميركيون والانكليز والهولنديون في محكمة نورمبرغ في النظر إلى الانصار الروس نظرهم إلى رماة احرار لم تتوافر فيهم ، ليكونوا محاربين ، الشروط التي نصت عليها المادة الاولى من عهدة لاهاي ، وسلموا بحق الالمان في إعدامهم « إذا ثبت انهم ارتكبوا الافعال المنسوبة اليهم [1] » .

ولكن ما هي الادلة التي يمكن سوقها ضد المتهم لتحديد مسؤوليته ، أي لاثبات كونه من الرماة الاحرار ؟ عند هذه النقطة افترق الانكليز والاميركيون . فقد قال هؤلاء ان القانون الدولي لا ينص صراحة على وجوب مثول الرماة الاحرار امام القضاء ؛ اما الانكليز فاصروا على وجوب محاكمتهم ، وقد بسط هذا الرأي ، خلال محاكمة فون مانشتين ، لورد كولنغورود عندما قال :

« لا جدال في ان الروس شنوا حرباً صغيرة واسعة النطاق ، ولا جدال كذلك في ان الحرب المذكورة ضايقت الالمان وافسدت الكثير من خططهم . وإذا لم يكن من حق الذين حاربوا ، وكأنهم رماة احرار ، ان يطمعوا بالمعاملة التي يلقاها اسرى الحرب النظامية ، فليس معنى ذلك انه يجوز

[1] U. S. War Crimes, (Nuremberg, p. 6758.)

اعدام الرماة الاحرار دون محاكمة . فالجاسوس يمثل امام القضاء ، والرماة الاحرار يجب ان يعاملوا كالجواسيس . أما قول المارشال فون مانشتين انه لم يكن لديه متسع من الوقت لدعوة المحاكم العسكرية للالتئام فقول مردود ، إذ لا يجوز تجاوز القوانين والشرائع بحجة ان تطبيقها يعوق النشاط الحربي . »

وجدير بالذكر ان الالمان انفسهم يشاطرون الانكليز وجهة نظرهم ، فكل جندي الماني يحمل « الوصايا العشر للجندي في الميدان » . وقد نصت الوصية الثالثة على ما يأتي : « كل خصم يلقي سلاحه او يسلم نفسه يؤخذ اسيراً ولا يجوز قتله ، حتى رجال العصابات والجواسيس يُبقى على حياتهم ليمثلوا امام القضاء ويلقوا جزاء فعالهم [1] . »

وبالرغم من ذلك اعدم الالمان . في روسيا . الانصار وكل روسي اشتبهوا بأنه من الانصار أو على صلة بهم .

وقد قسم الالمان الانصار ثلاث فئات : فئة المشبوهين ، وفئة المؤيدين . وفئة الانصار . وجاء

[1] Waltzog, Law on Land Warfare, Berlin, p. 5.

في حيثيات احكام نورمبرغ بشأن الفئات الثلاث ما ملخصه :

أ — فئة المشبوهين :

لا يجوز إعدام شخص لمجرد الاشتباه بكونه من الانصار ، فالشبهة تقوم في ذهن المتهم (بكسر الهاء) وهي حالة نفسية خاصة به ، وليست تقوم في ذهن المتهم (بفتح الهاء) ، فكيف يجوز ان تكون حالة المدعي او المتهم النفسية مرتكزاً للحكم على إنسان بالموت ؟

ب — فئة المؤيدين :

إذا لم يثبت المؤيد بالافعال كونه من الانصار فاعدامه يشكل جريمة يعاقب عليها القانون . اما إذا ثبت ان نشاط المؤيدين قد ساعد الانصار فيمكن اعدامهم ، ولكن بعد محاكمتهم .

ج — الانصار :

توسع الالمان في اطلاق هذه اللفظة بحيث شملت كل روسي غير مرغوب فيه . ففي محاضرة القاها الجنرال مولر في فرصوفيا ظهر ١١ حزيران بحضور اعضاء المحاكم العسكرية الالمانية ، قال ما نصه الحرفي :

« يعتبر من الانصار كل مدني يعرقل أو يحرض

الآخرين على عرقلة تقدم الجيش الالماني . اي يمكنكم ان تعدوا من الانصار موزعي النشرات الممنوعة . ومشيري الشغب ، والذين يتجاهلون الاوامر المعطاة ، والمخربين . ونازعي العلامات عن الطرق . الخ ... »

وذهب الجيش الالماني الحادي عشر إلى حد اعتبار جنود الجيش الاحمر من الانصار ، فقد نص امر يومي اصدره قائد الجيش المذكور على وجوب اعدام كل مجموعة من الجنود الحمر تختبيء بعد المعركة وفي نيتها ان تعود فتجمع صفوفها لتحمل السلاح ضدنا .

ويفهم من اقوال ممثلي الدول المنتصرة في محكمة نورمبرغ ان الحلفاء اعتبروا عملاً اجرامياً اعدام الاشخاص الذين يدخلون الفئات التالية . والذين اعتبرهم الالمان رماة احراراً :

١ — الجنود والوحدات العسكرية التي تابعت القتال بعد قطعها عن القوات الرئيسة .

٢ — الجنود التابعون للجيش الاحمر الذين التحقوا بالانصار محتفظين بالبزة العسكرية .

٣ — المدنيون الذين ضايقوا الجيش الالماني أو حرضوا على مضايقته : « ان معاملة هؤلاء كما لو كانوا

رماة احراراً حقيقيين عمل لا يقره العرف ولا القوانين الدولية [1] . »

وقبل ختام هذا البحث نذكر ان عهدة لاهاي تحمي المدنيين الذين يشتركون في حركة جماعية ضد العدو ، فقد نصت المادة الثانية من العهدة على ما يأتي :

« إذا حمل السكان السلاح ليقاوموا العدو الزاحف إلى منطقتهم ، دون ان تفسح لهم سرعة تقدم العدو في مجال تنظيم انفسهم بمقتضى احكام المادة الاولى ، فانهم يعتبرون محاربين في حال حملهم الاسلحة جهاراً وتقيدهم بقوانين الحرب وتقاليدها . »

[1] U. S. War Crimes Trial againts F. M. von Leeb et al., p. 96 du jugement .

الفصل الرابع

مهام الانصار التكتية

لخص الجنرال بونومارنكو رئيس الاركان العامة لحركة المقاومة الشعبية المهام التكتية المنوطة بالانصار على النحو الآتي :

« في مستهل الحرب الوطنية باشر الانصار السوفيات ، تلبية لنداء جوزف فيساريونوفتش ستالين ، تشكيل وحدات الحرب الصغيرة وحضائر التخريب . وكانت مهمة هذه وتلك ارهاق قوات العدو ، واقامة الحواجز والعراقيل في طريقه ، وقطع المواصلات السلكية والبرقية ، ونسف المستودعات ، وتهديد العدو باستمرار ، والمتعاونين واياه ، والضالعين معه وإبادتهم ، وافساد التدابير التي يمكن ان لمجأ اليها . »

ويحسن بنا ان نتوسع قليلاً في ايضاح مهام الانصار التكتية [1].

عندما كان الانصار يقاتلون في المنطقة الحرام لم يترتب على نشاطهم نتائج ذات شأن ، لانه لم يكن في متناولهم هدف يهاجمونه سوى العدو الذي يخوض غمار معارك نظامية . ومنازلة الجيوش في معارك نظامية ليس من اختصاص العصابات لأنها لم تعدّ لمهمة من هذا النوع . ألم يقل ستالين في امره المؤرخ اول ايار ١٩٤٢ : « ان ميدان نشاط الانصار هو مؤخرات العدو » ؟

يتضح من ذلك ان الفتح والاحتلال ليسا مطلوبين من الانصار . وقد رأينا العصابات السوفياتية تتفادى الدخول في معركة من اجل ارض تريد التشبث بها ، ولكنها قاتلت احياناً في سبيل التشبث بمواقع أو احتلال مواقع يمكن ان يفيد الجيش الاحمر من وجودها بأيدٍ صديقة .

وقد عمل الانصار السوفيات — كما عمل من قبل الانصار الصينيون — بتعاليم كارل ماركس ، فاعتمدوا التكتية التي تتيح « لقوة صغيرة ان تتغلب على قوة كبيرة وادق

[1] للالمام باستراتيجية الانصار يراجع ما كتبه F. O. Miksche بهذا الشأن.

تنظيماً » . فتفادوا دائماً الاشتباك بعدو يفوقهم عدداً وامكانيات .

وعمل الانصار السوفيات بنصائح ماو تسي تونغ ، فباغتوا العدو بهجماتهم الخاطفة ، وانسحبوا قبل ان يسترد العدو روعه ويجمع صفوفه ؛ فقد اوصى ماو تسي تونغ بان يكون الاحتكاك بالقوات المعادية قصير النفس . وعمل الانصار كذلك بتعاليم الكولونيل لورنس فاستخدموا وحدات صغيرة في عمليات خاطفة ، وحصروا نشاطهم وراء خطوط العدو .

وعني الروس عناية خاصة باختيار رؤساء الوحدات ، لأن تعيين الاهداف يعود إلى هؤلاء ، وهي مهمة دقيقة تتطلب ذكاء وبعد نظر وسرعة بديهة . ولما كان الرئيس لا يستطيع تعيين الاهداف ما لم يكن ملماً بالارض وبأحوال العدو وحركاته ، فقد الحق بكل وحدة انصار دائرة استخبارات : « كان رئيس الوحدة يعلم كل ما يجري في خطوط الالمان ، ويعرف سلفاً ما يعتزمون القيام به ، فيفسد خططهم وتدابيرهم في الوقت المناسب [1] . »

[1] من يوميات الجنرال الروسي كوفباك Kovpak .

وعند اختيار الاهداف يقدم رئيس الانصار الاهم على المهم ، فيبدأ بالعمليات الزامية إلى توفير السلاح والذخيرة والمواد الغذائية لرجاله . ثم يوجه نشاطه إلى الاهـداف السهلة المنال . إلا إذا تطلبت خطط قيـادة الجيش الاحمر نشاطاً من نوع آخر ، أو تطلبت ركون الانصار للهدوء فترة من الوقت كما حصل في ربيع ١٩٤٤ . ففي مطلع ذلك الربيع نشطت حركة المقاومة الشعبية نشاطاً كبيراً في القطاع الاوسط فهاجم الانصار السكك الحديدية ٤٨٠٠ مرة في غضون اربعة اسابيع ، واخرجوا ٦٠٠ قطار وعربة عن الخط ، ونسفوا ٧٤ جسراً ، ولكن نشاطهم توقف بغتة ، وكان مرد هذا التوقف إلى تعليمات تلقاها الانصار من قيادة الجيش الاحمر .

ذلك ان القيادة السوفياتية كانت تعد العدة لضرب الجناح الايسر لمجموعة الجيوش الالمانية في القطاع الاوسط من الجبهة ، ولكنها قامت بحركات مضللة لايهام الالمان انها تريد الانقضاض على الميمنة ، فراح هؤلاء ينقلون قواتهم الاحتياطية إلى الجنوب معززةً بعناصر سحبت من الغرب وبوحدات سحبت من الشمال (على حساب الجناح الايسر) ، مستخدمةً في نقل هذه القوات الخط الحديدي الوحيد الذي سلم لها وهو خط اورشا — برست بطريق منسك . وكـان

نصار قد أعدوا العدة لمهاجمة هذا الخط فأمرتهم قيادة الجيش الاحمر بتركه وشأنه ليتسنى للقيادة الالمانية اضعاف الميسرة بسحب بضع فرق من الشمال إلى الجنوب . وما ان اتمت سحب هذه الفرق حتى شنّ الحمر هجوماً مباغتاً على الجناح الايسر واستطاعوا فتح ثغرات واسعة في جهازه . وعندما حاولت القيادة الالمانية ارسال نجدات من الجنوب إلى الشمال اوعزت القيادة السوفياتية إلى الانصار بمهاجمة الخط الحديدي اورشا – برست بطريق منسك، ففعلوا وعطلوا حركة النقل بين شمال الجبهة وجنوبها [١].

*

كان الانصار الروس يتبخرون احياناً فلا يظهر لهم اثر . وقد خدع تبخرهم الالمان غير مرة ، ولم يفطنوا إلى الخدعة إلا بعد فوات الاوان ، أي بعد شروع الجيش الاحمر في تطهير الاراضي الروسية من العدو المحتل .

كان الانصار يتوارون ليوهموا العدو الذي احتل المنطقة حديثاً انها خلو من حركة المقاومة الشعبية ، فيطمئن ويهمل اتخاذ تدابير السلامة الواجبة ، فتباغته العصابات بضربات موجعة ، يساعدها في اعتماد عامل المباغتة انها

١ Hermann Teske , die silbernen, Spiegel, p. 192 — 210.

لا تحمل السلاح جهاراً ولا تظهر بهندام عسكري أو شبه عسكري تعرف به ، فضلاً عن سهولة تنقلها ليــلاً على ارض تعرفها جيداً .

وعمل الانصار السوفيات بنصائح ماو تسي تونغ فاختاروا دائماً الاهداف التي لم يختصها العدو بحماية كافية ، أي انهم اختاروا الاهداف التي تتيـح لهم الافادة من مزونتهم ومواجهة عدو يتمتع بالتفوق التقني . اما الاهداف التي لم تكن تتمتع بحماية كافية فهي الخطوط الحديدية والهاتفية، ومراكز توزيع الغاز والطاقة الكهربائية ، والآبار ،والجسور. والمستودعات ، والأهداف البشرية المنعزلة كالعسس والقوافل الصغيرة ، ووحدات المشاة الصغيرة . وقد تصدى الانصار بادىء ذي بدء لبعض الثكنات والوحدات الكبيرة في اثناء سيرها ، ولكنهم ما عتموا حتى اقلعوا عن هذه المحاولات مكتفــين باغارات خاطفة على الطلائع أو المؤخرات .

ولشن مثل هذه الاغارات اعتمد الانصار شبكـــة استخبــارات نشيطة جداً كانت تعمل في الوقت نفســه لحساب الجيش الاحمر ودوائر الاستخبارات التابعة له . وقد تقــدم معنــا ان حركــة المقاومة الشعبيــة وزعــت جواسيسها على المستشفيات العسكرية ودوائر التموين ومراكز التجمع والحشد في المناطق المحتلة ، فــكان الجواسيس

على اتصال دائم بالضباط الالمان ، لا تفوتهم حركة من حركاتهم ولا كلمة من كلماتهم . وكان ثمة معلومات يتطلب الحصول عليها بعض الوقت وطول اناة . فلأجل نسف قطار لا بد من معرفة وقت قيامه ووقت مروره بالمكان الملغوم ؛ ولاجل خطف ضابط لا بد من مراقبة تنقلاته وتحديد الامكنة التي يرتادها والوقت الملائم لخطفه ، الخ ...

اما المعلومات التي كان جواسيس الانصار يجمعونها لحساب الجيش فقد كانوا يستخدمون الراديو في ابلاغها الى المرجع المختص . وعندما كان الجيش ينزل جواسيسه بالمظلات وراء الخطوط الالمانية ليوافوه بمصور واضح عن جهاز العدو وبمعلومات اكيدة عن حشوده وتحركاته ، كان محظوراً على الجواسيس الاتصال بزملائهم العاملين لحساب الانصار أو الاستعانة بهم ، لأن الاسرار المعهود اليهم بالكشف عنها لا يجوز ان يعلم بها سواهم . اما المعلومات التي يمكن ان يحصلوا عليها فلا يحق لهم ابلاغها رؤساءهم بواسطة الراديو ، بل عليهم ان يحملوها إلى الرؤساء بانفسهم .

وقد وقف الالمان حيارى ، عاجزين ، حيال نشاط الجواسيس الحمر . فقد كان السوفيات شبكة

تجسس تضم آلاف الرجـال والنساء والاولاد . ولم يسجل تاريـخ الحروب انتشار مثل هـذا العدد من العملاء والمخبرين في منطقـة يحتلها العدو ويحكمهـا بالحديـد والنار . وقـد اعترف الالمـان (تقرير قيـادة الجيش الخامس بتاريـخ ٥ آذار ١٩٤٢) بأن الروس « مطلعون على حركاتنا وسكناتنا . ولا يفوتهم شيء ممـا نعتزم القيام به من اعمال وخطط » . وكان الجنرال بونومارنكو غير متبجـح عندما قال : « ان حركـة المقاومـة الشعبيـة السوفياتية هي احد العوامل الرئيسـة التي ادت إلى سحق العدو » .

وإذا تركنا جانباً اهداف الانصار العاجـلة لنستعرض اهدافهـم العـامة وجـدنا ان هذه الاهداف نوعان :

١ ــ إستنزاف قوى العدو استنزافاً يضعف جبهته .

٢ ــ شن هجمات مستمرة على قوافل تموينـه ووسائـط نلقه لجرمانـه الاسلحـة والذخيرة والمـؤن .

وقد بلغ الانصار الهدف الاول بمجرد وجودهـم . إذ اضطر الالمـان إلى تجميد قوات كبيرة في المؤخـرات لمواجهـة حركـة المقـاومة الشعبية والحد من نشاطهـا . وعندمـا اتسع نطـاق الحركـة اضطرت القيادة الالمانية إلى سحب بضع فرق من الجبهة لتعزز بها الوحدات العاملة

في المناطق المحتلة .

وانزال الخسائر الفادحة بالعدو هو اجدى الطرق لارهاقه واستنزاف قواه . وقد ذكر الجنرال بونومارنكو في يومياته ان الانصار ابادوا بين ١٩٤١ و ١٩٤٣ ثلاثمئة الف الماني ، اي ما يعادل عشرين فرقة .

وجدير بالذكر ان خسائر الانصار كانت طفيفة نسبياً ، وقد نوهت التقارير الالمانية بقدرة العصابات على الافلات والتبخر كلما اوشكت الحلقة ان تطبق عليها . ذلك بان الانصار السوفيات قد تأثروا خطى زملائهم الصينيين ، فكانوا يضربون ضرباتهم ، ثم يقومون بحركات انكفاء استراتيجية تفادياً للاشتباك الطويل النفس ولحركات التطويق التي يمكن العدو ان يقوم بها . (علّم ماو تسي تونغ حركة المقاومة الشعبية في الصين ان عصابة في العمل تشغل العدو ؛ أما العصابة التي تتيح للعدو ابادتها فانها تترك له الميدان حراً فينصرف إلى مهام اخرى) . ذلك انه إذا كان لزاماً على الجندي النظامي ان يتشبث بموقفه إلى النهاية ، فرجل العصابات محظور عليه البقاء حيث هو متى تبين له ان المقاومة غير مجدية .

ويشدد قائد الانصار كوفباك على هذه النقطة في

كتابه . ويذكر انه امر انصاره بالانسحاب من احراج سبادشانسكي عند منتصف ليل اول كانون الاول لان ذخيرتهم كانت قد نفدت وكان العدو قد شرع في تطويق المنطقة . وقد برر عملية الانسحاب « برغبة القيادة في ابقاء قواتها سليمة ، قادرة على خوض غمرات معارك جديدة » .

أما الهدف العام الآخر فقد بلغه الانصار عندما ادى تخريبهم الطرق والجسور والخطوط الحديدية في المناطق المحتلة إلى قطع المدد والمؤن عن قطاعات كانت بحاجة ماسة اليها .

*

والآن كم كان عدد الانصار في روسيا السوفياتية ؟ لم تعط المصادر السوفياتية رقماً يجوز الركون اليه . اما الالمان فقد قدروا عددهم بمليون ونصف مليون رجل . والثابت ، على كل حال ، ان العصابات ملأت السهل والجبل والسفوح والوديان والغياض والمستنقعات في العامين الاخيرين من الحرب . وقد ادرك الروس ، على ضوء خطواتهم الاولى في الحرب الصغيرة ، ان الف عصابة تضم الواحدة منها خمسين رجلاً تعطي نتائج افضل من تلك التي تعطيها خمسون عصابة تضم الواحدة منها الف رجل .

وثبت كذلك انه بقدر ما تكون العصابة مستقلة في

عملها تكون قدرتها على الصدام عظيمة . لذلك حرص السوفيات على ان يكون لكل عصابة اسلحتها وذخائرهـــا ومستودعاتها واجهزة الارسال والرصد الخاصة بها . بحيث تستطيـع العمل منفردة اطول مدة ممكنة .

ادرك الانصار طبيعة حركتهم ونوع المهام التي ينبغي لهم اداؤها بعد اسابيع من ظهورهم على المسرح ، وقد لخص الجنرال كوفباك ، احد قادتهم اللامعين ، تلك المهام بما يأتي :

« كلفتنا غالياً المعارك الدفاعية التي فرض علينا العدو خوض غمراتها . ففي هذا النوع من المعارك يمكن العدو ان يفيد من تفوقه العددي والتقني . وقد احرزنا نحـــن اعظم انتصاراتنا حيث استطعنا الاحتفاظ بحرية العمل . ومنذ انسحابنا من احراج سبادشانسكي بنينا خططنا وتصاميمنا على السير السريـع والحركـات السرية والهجمات المباغتة . لعلمنا ان العدو لا يقوى على اللحاق بنا وارغامنا علـــى مقاتلته وجهاً لوجه إن نحن تحركنا باستمرار ، وناورنا باستمرار ، وبدلنا اتجاه سيرنا باستمرار . وحتى إذا استطاع تطويقنا بقوات كبيرة فان مرونتنا تتيـح لنا الافلات . »

ليس لدى ماو تسي تونغ ما يضيفه إلى هذه الاسطر . وقد اثبت الانصار السوفيات انهم حفظوا جيداً تعاليم ماو . بـــل هضموها جيداً .

من منشورات دار المكشوف



سلسلة تكشف عن خفايا الحرب العالمية

قروش لبنانية		
٢٠٠	هتلر الغازي	باسيل دقاق
٢٥٠	جواسيس	باسيل دقاق
١٥٠	جاسوسات المانيات	باسيل دقاق
٢٠٠	هتلر حي	باسيل دقاق
٢٢٥	هتلر العاشق	باسيل دقاق
١٢٥	اخائن انا ؟	زهير زهير
٧٥	معشوقات موسوليني	لويس الحاج

●

كتب عسكرية

١٥٠	نحو الجيش المحترف للجنرال شارل دي غول
٣٠٠	الجيش الفرنسي (١١٠ صور) للويس الحاج
٢٠٠	رسالة في الرئاسة والرئيس للزعيم مونتانيون

الثمن ١٠٠ ق.ل. او ما يعادلها

مطابع دار العلم للملايين
بيروت